نشأة الكتابة الفنية وتطورها
إلى نهاية القرن الثالث الهجري

إعداد

الدكتور

فتحي علي عبده

كلية الآداب – جامعة المنوفية

بإصدار مارس لعام 2018 م

شعبة النشر والخدمات المعلوماتية

الكتابة ظاهرة حضارية تشيع في الأمم التي نالت قسطًا من التحضر ، إذ يدفع إلى وجودها حاجة المجتمع إلى تسجيل جوانب من حياته الاجتماعية ، وكلما زادت حركة التطور والتحضر في المجتمع ، وتعقدت هذه الجوانب ، سايرتها حركة التعبير عنها ، فالتعبير بالكتابة عن مظاهر الحياة الاجتماعية ، يكون في بادئ أمره بسيطًا ساذجًا ، ثم يتحول تدريجيًا بفعل التطور والتحضر إلى التأنق والتجمل.

وفي هذا البحث سنحاول تتبع نشأة الكتابة الفنية وما طرأ عليها من التطور إلى نهاية القرن الثالث الهجري ، ولعل أول سؤال يفرض نفسه ، هو ماذا يُقصد بالكتابة الفنية ؟ .

يقول القلقشندي : « إن الكتابة ، وإن كثرت أقسامها ، وتعددت أنواعها لا تخرج عن أصلين : هما كتابة الإنشاء ، وكتابة الأموال ... إلا أن العرف فيما تقدم من الزمان قد خص لفظ الكتابة بصناعة الإنشاء ، حتى كانت الكتابة إذا أطلقت لا يراد بها غير كتابة الإنشاء ، والكاتب إذا أطلق لا يراد به غير كاتبها»[1].

وإذا لاحظنا معنى الخلق والابتداع الذي يتضمنه لفظ الإنشاء ، فإننا نكون بذلك قد حددنا الإطار الصحيح لمعنى الكتابة الفنية ، يقول الصولي : « أنشأ الكاتب الكِتاب : ابتدأ عمله على غير مثال يحتذيه »[2]، فالإنشاء يتطلب إذن ضرورة الإبداع والخلق ، إذ يجب على الكاتب أن يكون حاذقًا ماهرًا في كتابته[3] ، حتى يبدو وكأنه مبتدع جاء بها على غير مثال سابق ، فلا مكان للتقليد العقيم ، وإنما للابتكار المبدع .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن عملية الخلق والابتكار تتطلب شيئًا من التروي ثم التجمل والتأنق ، وإذا لاحظنا أن هذه الأمور تؤثر في نفس القارئ وتحقق له الإحساس باللذة والجمال ، فإننا نكون أقرب ما يكون إلى بيان المقصود بالكتابة الفنية[4].

ومن خير ما يعبر عن مفهوم الكتابة الفنية قول عبدالحميد الكاتب : « لو كان الوحي ينزل على أحد بعد الأنبياء لنزل على كُتاب الإنشاء»[5]، فهو يرى أن الكاتب

---

(1) صبح الأعشى : 52/1.

(2) أدب الكتاب : 118.

(3) مما يدل على حذق الكتاب ومهارتهم ما يلاحظ في سبب تسمية الديوان ، فقد قيل : « إنه اسم للشياطين بالفارسية ، سُمي الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم في فهم الأمور ، ووقوفهم على التجلي منها والخفي ، وجمعهم لما شذ وتفرق ثم نقل إلى مكان جلوسهم لتلك الأعمال » ، مقدمة ابن خلدون/ 243 ، وراجع عيون الأخبار لابن قتيبة : 250/1 ، الأحكام السلطانية / 199.

(4) يبين الدكتور حسني نصار مفهوم الكتابة الفنية بأنها «التي لا تصدر عن السليقة ، ولا يقصد صاحبها إلا مجرد الإفهام ، وإنما هي الكتابة التي تروي صاحبها في تجويد المعنى ، وتأني في اختيار اللفظ قبل إبرازها، لتخرج محيرة مجودة ، لأنه لا يقصد إلى الإفهام وحده ، وإنما يقصد أيضًا إثارة اللذة عند القارئ والإحساس بالجمال». نشأة الكتابة الفنية / 3.

(5) ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي / 335.

يوفر لكتابته من عناصر التحبير والتجويد ما يجعلها تذخر بطاقات التأثير النفسي والإمتاع العقلي ، حتى ليملك على قارئه عقله ولبه ، وكأنها الوحي المنزل من السماء.

الكتابة الفنية في الجاهلية

وإذا كنا نتتبع نشأة الكتابة الفنية وتطورها ، فمن الطبيعي أن نبدأ في مسيرتنا من الجاهلية. والتساؤل الآن : هل وجدت في الجاهلية كتابة ؟ ، وهل يمكن أن نصفها بأنها كتابة فنية؟ .

أما عن وجود الكتابة ، فلا خلاف بين الباحثين في ذلك[6] ، فلقد كانت حاجة المجتمع العربي في الجاهلية إلى تسجيل جوانب من حياته ، بالإضافة إلى ما نالوه من التحضر باتصالهم بالأمم المجاورة[7] ، من الأسباب التي أدت إلى وجود الكتابة وانتشارها.

وأما عن وجود كتابة فنية في الجاهلية فقد اختلفت الآراء وتشعبت :

فمن مؤيد لوجودها : مستندًا إلى وجود القرآن وتمثيله لخصائصها الفنية[8] ، أو إلى أن ما وصلنا من تراث الجاهلية – فضلاً عن القرآن الكريم – دليل على ما كان للعرب من وجود أدبي في العصر الجاهلي ، حتى على افتراض الشك فيه ، ووضعه في عصور لاحقة ، إذ الوضع لا يكون إلا على مثال يُحتذى ويحمل الطابع نفسه ، والسمات نفسها[9].

ومن ناف لظهورها : مستندًا إلى عدم وجود وثائق يمكن بها معرفة الجاهليين لها[10]، أو إلى أن كتابات الجاهليين محددة الأغراض ، وصادرة عن أناس على الفطرة، وليس لهم من المدنية مادة تدعوهم إلى الفلسفة والتوسع والفكر ، ومن ثم ؛ فقد

---

(6) راجع ما كتب عن الكتابة في الجاهلية على سبيل المثال : تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري د. نجيب البهبيتي (193 – 202) نشر دار الثقافة بالرباط ، ومصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد من ص 23 – 103 ، وبلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: للألوسي : 3/ 370/ 371.

(7) راجع عن طريق اتصال العرب بالأمم المجاورة ، فجر الإسلام لأحمد أمين : 12 – 29 ، مصادر الشعر الجاهلي : 16 / 17 ، أمراء البيان لمحمد كرد علي : 20/1.

(8) النثر الفني في القرن الرابع الهجري للدكتور زكي مبارك : 37/1 - 49.

(9) بلاغة الكتاب في العصر العباسي للدكتور محمد نبيه حجاب / 48. ويذهب دكتور أنيس المقدسي إلى أن حالة قريش الاقتصادية في الجاهلية « كانت تقتضي نثرًا غير النثر الديني المتكلف ، نثرًا مرسلاً للتعامل ، مطلقًا من قيود الصناعة اللفظية» ، ويرى أن نلتمس ذلك في كتابات النبي والصحابة لأنهم «وإن خرجوا عن نظام الجاهلية الديني بإسلامهم ، فإنهم لم يخرجوا عنها في مختلف عاداتهم وشئونهم». راجع تطور الأساليب النثرية ، 22/ 23.

(10) الفن ومذاهبه في النثر العربي ، دكتور شوقي ضيف : 18 - 20. ويرى دكتور شوقي ضيف أن ما تحت أيدينا من وثائق يجعل العصر الإسلامي هو عصر نشأة الكتابة الفنية وليس العصر الجاهلي أو العصر العباسي. راجع الفن ومذاهبه : 104.

تجردت كتاباتهم من كل صنعة وفن[11] ، أو إلى أن ما نجده في كتابات الرسول من البساطة والسهولة ، لا يحكم بوجود أطوار من الكتابة قبلها[12] ، أو إلى أن الكتابة الخطية لم تكن معرفة كاملة ، أو تستخدم استخدامًا تامًا في الأغراض المختلفة إلا حينما جاء الإسلام[13].

وبين متطرف في نفي معرفة العرب الذاتية للنثر الفني إلا بعد أن نقلوا طرائقه عن الفرس واليونان[14].

---

(11) أمراء البيان ، لمحمد كرد علي : 11/1.

(12) نشأة الكتابة الفنية للدكتور حسين نصار : 28. وجدير بالذكر أن دكتور نصار قد وقف موقفًا وسطًا بين من ينفي وجود الكتابة الفنية ، ومن يؤيد وجودها ، ولكنه يصرح في النهاية بميله إلى رفض وجودها ، فيقول : « نحن أمام آراء نظرية لا تسندها مواد أو وثائق تذهب بنا إلى تأييد أحد الفريقين ، ورفض الآخر ، لكن نظرنا في أحوال العرب أدى بنا إلى القول بأن ظروف حياتهم لم تكن تستلزم عدم وجودها ، ولا نستطيع أن نقول بوجود الكتابة الفنية اعتمادًا على وجود القرآن : ثم يقول : « ولكننا أشد ميلاً إلى رفض وجود هذا النوع من الكتابة في هذا العصر ، وخاصة بعد دراستنا لكتابات النبي المبسطة ، وسواء ملنا مع هؤلاء أو هؤلاء فإننا لن نستفيد من هذا الميل شيئًا ، فلن نعرف خصائص هذه الكتابة الفنية أو شيئًا عنها ، ما دام لم يصل إلينا شيء منها». نشأة الكتابة الفنية : 27/ 28 .

(13) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه للدكتور عبدالحكيم بلبع / 62. وجدير بالإشارة إلى أنه على الرغم من تقدير الدكتور بلبع. أنه كان للعرب الجاهليين نثر فني له خصائصه الفنية الأصيلة ، وأن هذا النثر قد بلغ إلى درجة ما في الرقي والجودة ، وأنه كان صورة من البيئة التي نتج فيها ، ممثلاً لبساطتها وسهولتها ، (النثر الفني وأثر الجاحظ فيه/ 51). إلا أنه يُخرج الكتابة الفنية من دائرة النثر الفني في الجاهلية لعدم شيوع الكتابة الخطية واستخدامها في الأغراض المختلفة. ويتشابه ذلك مع موقف الدكتور أحمد الحوفي. راجع كتابه أدب السياسة في العصر الأموي : 426 ، وكتابه تيارات ثقافية بين العرب والفرس : 258.

(14) ذكر الدكتور زكي مبارك قول المسيو مرسيه بأن أول كاتب في اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسي الأصل، وأن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب وأسجاع الكهان ، والأمثال ، ويعلل ذلك بأنهم كانوا يحيون حياة أولية بدائية ، وهي لا تقتضي نثرًا فنيًا ، لأن النثر الفني لغة العقل والثقافة ، وإنما يلائمها الشعر لأنه لغة العاطفة والخيال. راجع النثر الفني في القرن الرابع : 1/ 37/ 38/ 43.

وجدير بالذكر أنه برغم ما يقرره دكتور طه حسين من أن أول القرن الثاني للهجرة هو الذي شهد ظهور الحياة العقلية ، وهو الذي شهد مظهر هذه الحياة العربية ، وهو نشأة النثر الفني (راجع كتابه من حديث الشعر والنثر : 587 من المجلد الخامس من المؤلفات الكاملة للدكتور طه حسين). وأن أول من أحدث في نفوسنا لذة الكتابة الفنية هو عبدالحميد وابن المقفع (من حديث الشعر والنثر : 594). وبرغم شكه في ما وصلنا من النثر الجاهلي (راجع في الأدب الجاهلي : 327 – 329). فإنه يرى أن كل شيء في تاريخ الأدب العربي يدل على أنه قد كان للمصريين نثر ما ، بل يدل على أنه قد كان لهم قبل الإسلام نثر وصل إلى حد من الرقي لا بأس

ومع أننا لم نعثر حتى الآن على نصوص موثوق بها ، يمكن أن نعتمد عليها في إثبات فنية الكتابة في الجاهلية ، فإننا نميل إلى القول بوجودها ، ولكننا لن نتخذ من وجود القرآن دليلاً عليها لأن « ألفاظه وتعبيراته ومعانيه لا تمثل لغة الجاهليين بأكملها ، لأن القرآن استعمل ألفاظًا لم يكن يستعملها الجاهليون ، وخصص ألفاظها لمعان يخصصها الجاهليون ، واستعمل استعارات ومجازات خارجة عن الدائرة التي كان يستعملها الجاهليون ، وله أسلوب أخاذ كان بعيدًا عن أسلوب الجاهليين »[15].

وإنما سنذكر بعض الأدلة العقلية التي تفصح عن وجود الكتابة الفنية في الجاهلية وتبين خصائصها ، ومن هذه الأدلة :

1 – ما ذُكر عن بلاغتهم الخطابية :

يقول الجاحظ عن ذلك « كان الكلام البائت عندهم كالمقتضب ، اقتدارًا عليه ، وثقة بحسن عادة الله عندهم فيه ، وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأي في معاظم التدبير ، ومهمات الأمور ، ميَّثوه في صدورهم ، وقيَّدوه على أنفسهم ، فإذا قومه التفاف ، وأدخل في الكِير ، وقام على الخلاص ، أبرزوه محكَّكا منقَّحا ، ومصفي من الأدناس مهذبًا »[16].

فإذا عرفنا أن بعض الكتاب في الجاهلية كانوا خطباء ، وحكماء ، كأكثم بن صيفي[17]. فإنه من الطبيعي أن تُطبع كتاباتهم بالطابع العام لبلاغتهم. يقول أبو هلال العسكري : « كان أكثم بن صيفي إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه : افصلوا بين كل معنى منقض ، وصلوا إذا كان الكلام معجونًا »[18]. ولا شك أن معرفة الفصل من الوصل سمة من سمات البلاغة الخطابية. وما أثر من كتاباته[19] – حتى ولو تطرق إليها الشك – يتفق مع ما اشتهر به من بلاغة وحكمة. ومن ثم ؛ فإنها تمثل جانبًا من بلاغته، إذ هي عبارة عن أمثال وحكم ، لم تخل من التنميق وعناصر الجمال .

به ، ويرجع ذلك إلى ظهور أثر التفكير والروية في الشعر الجاهلي ، وما ناله العرب في مكة والمدينة والطائف من الحضارة ، واستخدامهم الكتابة في شئونهم التجارية ، والاقتصادية ، واتصالهم بالأمم الأخرى ، بالإضافة إلى معارفهم الخاصة ، ويرى أنه حينما يرفض ما يضاف إليهم من النثر ، فإنه لا يزعم أنهم جهلوا النثر جهلاً تامًا ، ولم يعرفوه إلا بعد الإسلام ، وإنما يزعم أن قد كان لهم نثر لم يصل إلينا منه شيء بطريقة علمية قاطعة أو مرجحة. راجع : في الأدب الجاهلي : 329 - 330.

(15) فجر الإسلام لأحمد أمين : 53.

(16) البيان والتبيين : 14/2. وراجع بعض ما قاله الشعراء في وصف بلاغة الخطباء في البيان والتبيين : 1/ 109/ 219/ 265/ 349.

(17) المصدر نفسه : 1/ 365.

(18) الصناعتين لأبي هلال العسكري : 440.

(19) راجع جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت ، ط2 : 1/ 25 - 30.

ومما يؤيد صدور كتاباتهم من نفس معين بلاغتهم الخطابية ، قول الحرث بن أبي شَمِر الغسَّاني لكاتبه المرقش : « إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه ، فافصل بينه وبين تبيعته من الألفاظ ؛ فإنك إن حذفت ألفاظك بغير ما يحسن أن تحذف به نفرت القلوب عن وعيها ، وملته الأسماع واستثقلته الرواة »[20].

فهو يطلب منه أن يوفر لكتابته عناصر التأثير الفني حتى لا تنصرف عنها القلوب ، ولا تملها الأسماع ، ويقبل عليها الرواة ، ولا شك أن هذه التعبيرات ، تنصرف بالدرجة الأولى إلى الخطابة لا إلى الكتابة .

2 – اتصال بعض الكتاب بحضارات الأمم المجاورة :

إن ما جاء عن اتصال بعض الكتاب العرب بحضارات الأمم المجاورة ، يغلب الظن بتأثر هؤلاء الكتاب بطرائق الكتاب في تلك الأمم ، ومحاولة النسج على منوالهم .

يذكر الأصفهاني أن عَدِي بن زيد تعلم في الكُتاب الخط العربي ثم الخط الفارسي « فصار أفصح الناس وأكتبهم بالعربية والفارسية ، ثم انتقل إلى بلاد الفرس فأصبح كاتبًا بالعربية في ديوان كسرى »[21] ، كما كان لَقيط بن يَعمر الإيادي كاتبًا بالعربية ويحسن الفارسية ؛ ولذلك كان يعمل كاتبًا أيضًا في ديوان كسرى[22] ، وكان المرقش وأخوه حرملة قد تعلما الخط والكتابة عند نصراني من أهل الحيرة[23].

ولما كان « كل كلام الفرس ، وكل معنى للعجم ، فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة »[24]؛ فإنه يمكن القول بأنه ليس من المستبعد أن تتأثر كتابات المرقش وعَدي ولقيط بمميزات التروي والتأنق التي يتميز بها هؤلاء القوم .

إن صفات التروي والتأنق ليست بغريبة عن الأدب العربي ، فالخطباء – كما يذكر الجاحظ – يميثون الكلام في صدورهم ، ويقيدوه على أنفسهم ، ولا يبرزونه إلا محككًا منقحًا ، ومصفى من الأدناس مهذبًا. وكان هناك من الشعراء من يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتًا وزمنًا طويلاً يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه اتهامًا لعقله ، وتتبعًا على نفسه ، فيجعل عقله زمانًا على رأيه، ورأيه عيارًا على شعره إشفاقًا على أدبه»[25].

ومما تقدم يتضح لنا ، أننا أمام نمطين من الكتابة الفنية ، ونرجح أن خصائص الكتابة الفنية في الجاهلية لن تخرج عنهما ، فهي إما أن تُطبع بطابع التجويد العربي

---

(20) الصناعتين : 440.

(21) الأغاني : 2/ 519 ، 520.

(22) مختارات ابن الشجري ، القسم الأول ص 1 ، وراجع الشعر والشعراء لابن قتيبة : 1/ 199.

(23) الأغاني : 6/ 2210.

(24) البيان والتبيين : 3/ 28.

(25) المصدر نفسه : 2/ 9 ، وراجع العمدة : 1/ 129.

الذي كان الخطباء والشعراء العرب يقومون به ، وإما أن تُطبع بطابع التأنق والتحبير الفارسي الذي عايشه بعض الكتاب[26].

وقد يقال إن عدد الكتاب في الجاهلية كان قليلاً ، بدليل أن عدد كتَّاب النبي لا يكاد يتجاوز أربعين كاتبًا[27]. ومثل هذا العدد غير كاف لإحداث كتابة فنية ؟ .

ويُرد على ذلك بأن مثل هذا التحديد لا يتلاءم وطبيعة الأشياء ، فقد ذكر الرواة من ثبت على الكتابة للرسول فقط ، ولاشك أن وراءهم طبقة أخرى من الكتاب لم يذكروهم. يقول المسعودي بعد أن أثبت قائمة بأسماء من كتب للرسول صلى الله عليه وسلم : « وإنما ذكرنا من أسماء كتابه صلى الله عليه وسلم من ثبت على كتابته ، واتصلت أيامه فيها ، وطالت مدته ، وصحت الرواية على ذلك من أمره دون من كتب الكتاب والكتابين والثلاثة ، إذ كان لا يستحق بذلك أن يسمى كاتبًا ، ويضاف إلى جملة كتابه »[28] ، وحتى لو سلمنا بقلة عدد الكتاب في الجاهلية ، فليست العبرة بكثرتهم أو قلتهم ، وإنما بمَنْ يبدع ، ويخرج أدبًا وفنًا. ولا شك أن مثل هؤلاء قد وجد في الجاهلية .

أما ما قيل من أننا « إذا نظرنا إلى رسائل الرسول – صلى الله عليه وسلم – نجدها من البساطة والسهولة بحيث تجعلنا لا نحكم بوجود أطوار من الكتابة قبلها »[29].

فإننا نقول : إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – صاحب دعوة ورسالة ، يهمه في المقام الأول تبليغ رسالته بأبسط أسلوب وأسهله ، دون توجيه عنايته إلى التزويق والتنميق والتروي. يقول الجاحظ واصفًا بلاغته : « لم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة، وشُيد بالتأييد ، ويُسر بالتوفيق ، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه القبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، ومن حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ... لم تسقط له كلمة ، ولا زلت به قدم ، ولا بارت له حجة ... ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ... ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا ، ولا أقصد لفظًا ، ولا أعدل وزنًا ، ولا أجمل مذهبًا ، ولا أكرم مطلبًا ، ولا أحسن موقعًا ، ولا أسهل مخرجًا ، ولا أفصح معنىً ، ولا أبين فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم »[30].

---

(26) وجدير بالإشارة ما ذكره دكتور نبيه حجاب من أن « النثر الجاهلي يمتاز من نثر العصور التالية بجزالة الألفاظ، وكثرة الغريب ، وقصر الجمل المسجوعة ، وضعف الرابطة بينها ، أما العبارة ، فتفيض بالحكم والأمثال وتتخللها الكنايات القريبة التي لا تند عن الأفهام » . راجع بلاغة الكتاب في العصر العباسي : 48.

(27) نشأة الكتابة الفنية : 43 وراجع صبح الأعشى : 92/1 ، وفتوح البلدان : 457 - 460.

(28) التنبيه والإشراف للمسعودي : 262.

(29) نشأة الكتابة الفنية : 28.

(30) البيان والتبيين : 2/ 17.

فهو صاحب رسالة ، يتوخى الإيجاز المُفْهِم ، ولا يستعين بالتنميق والتزويق ، ولا يميل إلى الغريب المستكره ، ولقد طبعت رسائله بهذه الصفات ، واقتدى بها الصحابة، فلم يخرجوا عن دائرتها ، بل لقد رأوا أن الخروج عنها إلى دائرة التروي والتجمل قد يكون سببًا للهلاك ، فصارت البساطة والسهولة مثالاً يحتذى ، نتيجة للوازع الديني الخالص. ومما يؤيد ذلك ما ذكره الجهشياري من أن عمر « دعا بزياد فقال له : ينبغي أن تكتب إلى خليفتك بما يجب أن يعمل به. فكتب إليه كتابًا ، دفعه إلى عمر ، فنظر فيه ، ثم قال : أعد ، فكتب غيره. فقال له : أعد ، فكتب الثالث ، فقال عمر : لقد بلغ ما أردت في الأولى. ولكنني ظننت أنه قد تروى فيه ، ثم بلغ في الثاني ما أردت فكرهت أن أعلمه ذاك ، وأردت أن أضع منه لئلا يدخله العجب فيهلك»[31].

ويبدو أن ملكة زياد البلاغية ، التي تتميز بالتروي والتجويد والتجمل[32] ، قد ظهرت في كتابه ، فخشي عمر أن ينتابه العُجب ، فيكون سببًا في هلاكه ؛ لأن العُجب خلق يتنافى وطبيعة الإسلام.

وبعد ، فيرجح لدينا وجود كتابة ذات صبغة فنية في العصر الجاهلي ، ولا يعني ذلك بلوغها الذروة في التحبير والتجويد ، بحيث يمكن مقارنتها بما بلغته الكتابة الفنية من التحبير والتجويد في القرنين الثاني والثالث مثلاً ، أو أنه وُجدت طبقة متخصصة عريضة من الكتاب في الجاهلية يمكن مقارنتها بالطبقة العريضة للكتاب في القرنين الثاني والثالث الهجريين. وإنما أردنا أن نثبت أن الكتابة في الجاهلية لم تكن بمعزل عن حركة الأدب في تلك الفترة ، وإنما طبعت بطابعها ، واتسمت بسماتها ؛ لأن القائمين عليها كانوا إما شعراء وإما خطباء .

الكتابة الفنية في القرن الأول الهجري

إذا كان غياب النصوص الموثوق بها قد أثار الخلاف حول وجود الكتابة الفنية في الجاهلية ، فإن وجود هذه النصوص يؤكد وجود كتابة فنية في هذا القرن ، ويمكن القول بأن هناك عوامل كثيرة كانت وراء ازدهار الكتابة في هذا القرن. وأهم هذه العوامل :

1 – ظهور الإسلام وتكوين الدولة العربية :

---

(31) الوزراء والكتاب : 16.

(32) يقول الشعبي عن بلاغة زياد : « ما رأيت متكلمًا على منبر قط تكلم ، فأحسن ، إلا أحببت أن يسكت خوفًا أن يسيء إلا زيادًا ؛ فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلامًا » . البيان والتبيين : 2/ 65/ 66.

لقد استطاع الإسلام أن يغير نمط الحياة الاجتماعية والسياسية للعرب ، وكانت دعوته إلى القراءة والتعلم من أولى الدعوات التي نادى بها ، فلقد كان قوله تعالى : (افرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) [33]، أول آيات التنزيل ، كما نزل بالدعوة إلى تسجيل معاملات الأفراد بالكتابة[34]، ولقد اتخذ الرسول الكتَّاب لتدوين القرآن ولم يدع فرصة إلا وطوعها جاهدًا لنشر الكتابة بين الأفراد ؛ فلقد جعل فداء أسرى بدر من الكاتبين أن يُعلم كل واحد منهم عشرة صبيان من أبناء المسلمين[35]، ولاشك في أن النبي يهدف من وراء ذلك إلى توسيع القاعدة الكاتبة ، مما يبشر بانتشار الكتابة ، وظهور طبقة عريضة من الكُتاب الذين سيهتمون بالكتابة الفنية .

كما كان بزوغ الدولة العربية – في عهده صلى الله عليه وسلم – من أكبر العوامل في إظهار الكتابة وبثها في الأرجاء ؛ « فما يخفى على أحد ما تستلزمه الدولة من علاقات وروابط داخلية وخارجية ، لا يمكن التعبير عنها والاتفاق عليها إلا بالمراسلات. وهكذا كان إنشاء النبي – صلى الله عليه وسلم – للدولة العربية الإسلامية ، داعيًا إلى إنشاء نظام من المراسلات الداخلية والخارجية أيضًا »[36].

وكان لقيام دولة بني أمية وما عاصرها من أحزاب سياسية ، أثره على تطور الكتابة الفنية ، فلقد كانت « تلك المنازعات الدائمة في جميع البلاد والبيئات العربية ، عاملاً من أقوى العوامل التي ساعدت على إنضاج الحياة الأدبية في ذلك الحين ، حيث كان اللسان والقلم هما السلاح الوحيد الذي كانت تقوم عليه رحى هذه المنازعات ، فكان لكل حزب عدد من الخطباء والكتاب يحمونه ، ويدافعون عنه ، ويدعون إليه ، وقد اقتضى ذلك أن يُجوّد هؤلاء الخطباء والكتاب كلامهم ويحرصوا على تزويقه وتنميقه حتى يكون له من قوة التأثير ، وشدة الأسر ، ما يلهب نفوس الناس ، ويأسر قلوبهم نحو ذلك الحزب »[37].

2 – الامتزاج بالأمم الأجنبية :

لقد ساعدت حركة الفتوح الإسلامية منذ عهد عمر بن الخطاب على امتزاج العرب بالأمم المفتوحة ، ولقد كانت هذه البيئات ذات حضارة وعلم وأدب وفلسفة ، فقد فتح العرب العراق « وكان يسكنه بعض قبائل عربية من ربيعة ومضر وبعض من الفرس ... وفتحت فارس ، وكان يسكنها الفرس وقليل من اليهود ، وبعض الروم الذين أسروا في الحروب الفارسية الرومانية ، وفتح الشام ، وكان – قديمًا – قد تداولت عليه الأمم المختلفة والمدنيات المختلفة ، من فنيقيين وآموريين وكنعانيين ، وغزاة فراعنة

---

(33) سورة العلق : الآيات : 3، 4، 5.
(34) سورة البقرة : آية 282.
(35) أدب الدنيا والدين للماوردي : 68.
(36) نشأة الكتابة الفنية : 32.
(37) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه : 104.

مصر ، واليونان والرومان وعرب غسان ، وأخيرًا كان إقليمًا رومانيًا يتثقف بثقافة الرومانيين ... وفتحت مصر مهد المدنية القديمة ، والوارثة لحضارة قدماء المصريين واليونان والرومان ، وبها الإسكندرية مجمع المذاهب الفلسفية والطوائف الدينية ، وملتقى الآراء الشرقية والغربية ... وفتحت بلاد المغرب من برقة وتونس والجزائر ومراكش إلى مضيق جبل طارق وكانت كذلك في يد الرومان» [38].

ولاشك أن هذا الفتح قد انعكست آثاره على حركة الحياة الفكرية والاجتماعية ، فلقد « سبب فتح العرب لهذه الممالك عملية مزج قوية بين الأمة الفاتحة والأمم المفتوحة، مزج في الدم ، ومزج في النظم الاجتماعية ، مزج في الآراء العقلية ، ومزج في العقائد الدينية »[39].

ومن ظواهر هذا الامتزاج إنشاء الدواوين ، فلقد قيل إن عمر أنشأ ديوان الجند على غرار ما كان لدى ملوك الفرس أو الشام ، على اختلاف الروايات في ذلك[40].

ولقد كان إنشاء هذا الديوان بادرة طيبة لتعدد الدواوين وانتشاره في الأمصار المختلفة[41]. مما تطلب وجود طبقة خاصة من الكتاب ، تكون مهمتها دفع عجلة تطور الكتابة الفنية.

ويبدو أن أثر هذا الامتزاج قد بدا واضحًا على كتابات بعض الكتاب حتى أصبح طابعًا لهذه الكتابات. فقد كان عبد الملك بن مروان يقول عن رَوْحِ بن زِنْباع الجُذامي: إنه « شامي الطاعة ، عراقي الخط ، حجازي الفقه ، فارسي الكتابة »[42]. وما يهمنا هنا هو وصفه بأنه « فارسي الكتابة » ، فهل يقصد من ذلك معرفته بطرق الكتابة الفارسية وما عرفت به من تأنق وتنسيق؟، وهل وصفه بأنه فارسي الكتابة يعني وعي عبد الملك بمدلول هذه الصفة؟.

إن مدلول هذا الوصف الذي أصدره عبدالملك مدلول له أهميته ، لا لأنه يصدر عن أمير للمؤمنين ، ولكن لأن عبدالملك كان كاتبًا[43]، ولاشك أنه يدرك ما كانت عليه الكتابة العربية قبل الامتزاج ، وما أصابها من تطور بعده ، ولو وصلنا بعض رسائل رَوْح لاستطعنا أن نتبين حقيقة هذا الوصف .

3 – تعريب الدواوين :

---

(38) فجر الإسلام : 84/ 85.

(39) فجر الإسلام : 85.

(40) راجع فتوح البلدان : 435 / 436 والفخري في الآداب السلطانية : 71 - 73.

(41) راجع الوزراء والكتاب : 15 – 27 ولاشك أن إنشاء معاوية لديوان الرسائل كان عاملاً أساسيًا وراء النهوض بالكتابة الفنية.

(42) الوزراء والكتاب : 35.

(43) كان كاتبًا لعثمان بن عفان على ديوان المدينة ، راجع الوزراء والكتاب : 20.

كان تحويل دواوين الخراج في فارس والعراق والشام ومصر[44] إلى العربية ، من أهم العوامل التي ساعدت على رقي الكتابة الفنية ، فقد كان يلي أمر هذه الدواوين كتاب من الموالي ، فلما حدث التعريف ، اضطروا إلى تعلم اللغة العربية « كي يستعيدوا الوظائف التي انتزعها هذا التحويل ، فلما تعلم الموالي اللغة العربية ، وأجادوها ، كي يستطيعوا منافسة العرب في وظائفهم ، أخذوا يحاولون أن يُظهروا التفوق عليهم في التعبير بهذه اللغة ، وكانت ثمرة هذا التنافس السير بالكتابة إلى طريق الفن ، إذ أخذوا يتجملون في أساليبهم ويتأنقون حتى يتفوقوا على العرب ، ولاشك أن العرب قابلوا هذا الصنيع بالمثل ، مما سما بالكتابة إلى الدرجات العلى في هذه الفترة المبكرة من تاريخها »[45].

ولقد تجلت بعض آثار عملية التعريب في قول عبدالحميد الكاتب : « لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب »[46] ، ولاشك أن عبدالحميد الكاتب لا يريد من التنويه بفضل صالح ، بيان جهوده في عملية التعريف فقط ، وإنما يشير إلى فضل صالح في إدخال التأثير الفارسي إلى الكتابة العربية ، ولقد ذكر الجهشياري أن « عامة كتاب العراق تلامذة صالح »[47] ، مما يدل على أنه إمام مدرسة ، حاولت تطوير الكتابة الفنية بفضل ثقافاتها الأجنبية.

ويمكن أن نرصد التطور الذي حققته الكتابة الفنية في هذا القرن في اتجاهين :

أولاً : من حيث المضمون :

كان لظهور الإسلام واتساع أرجاء الدولة العربية ، أثره البالغ في تغيير نظام الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية. ولقد صورت الكتابة جوانب هذه الحياة بكل دقة وأمانة .

فلقد صورت الدعوات الأولى لإنشاء الدولة العربية منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فصورت محاولته لإرساء قواعد الأمن والسلام بين المهاجرين والأنصار واليهود بالمدينة[48] ، ودعوته الأمم الأخرى للدخول في الإسلام[49]. وتعاليم الإسلام وعباداته كالصلاة والزكاة والصدقات[50]. كما صورت أيضًا الدعوة إلى قتال

---

(44) راجع فتوح البلدان : 196/ 197/ 298. والوزراء والكتاب : 38 – 40 والفخري في الآداب السلطانية : 202/ 203.

(45) نشأة الكتابة الفنية : 70 وراجع النثر الفني وأثر الجاحظ فيه : 122/ 123.

(46) فتوح البلدان : 298 ، الأحكام السلطانية : 203 ، وكان صالح بن عبدالرحمن هو الذي تولى نقل ديوان الفارسية إلى العربية.

(47) الوزراء والكتاب : 39.

(48) جمهرة رسائل العرب : 1/ 31 - 35.

(49) المصدر نفسه : 1/ 37/ 40 – 42/ 44/ 45/ 50/ 55.

(50) المصدر نفسه : 1/ 47/ 51/ 55/ 57/ 60/ 64 – 66/ 68/ 83/ 86/ 87/ 124/ 125/ 135.

المرتدين والمشركين[51]. وتابعت حركة الفتوح الإسلامية ، وما صاحبها من تعيين بعض القواد[52] ، ورسم صورة للقائد وعنايته بجند المسلمين[53] ، ونتائج هذه الفتوحات من الكتابة بنصر[54]. أو إعطاء عهود الأمان لأهل البلاد المفتوحة[55] ، أو تقسيم الغنائم[56] ، وتوزيع الجزية[57] ، ورعاية مصالح الأسرى[58].

كما صورت الكتابة أيضًا ما يجب أن يتصف به الحاكم والقاضي والولاة من العدل والتقوى[59]، وما أصاب الدولة الإسلامية من فتن سياسية وصراعات حزبية[60].

وإذا كانت هذه الموضوعات بغلب عليها الجانب السياسي ، فقد صورت الكتابة أيضا الجانب الديني ، وما ذخرت به الحياة الإسلامية من آراء دينية ومذهبية[61] ، ومن وعظ وإرشاد[62].

وإلى جانب هذين الجانبين عرضت جانبًا من علاقات الأفراد الاجتماعية ، فنجد كتابات تدعو إلى التواد[63] ، وأخرى في الاعتذار[64] ، أو العتاب[65]، أو التعزية[66] أو التهنئة[67].

ومن ثم يمكن القول بأن الكتابة في القرن الأول قد صورت حركة الحياة خير تصوير.

---

(51) المصدر نفسه : 1/ 111/ 121/ 123.
(52) المصدر نفسه : 1/ 187/ 225/ 227/ 331/ 335.
(53) المصدر نفسه : 1/ 210 – 213/ 234.
(54) المصدر نفسه : 1/ 116/ 155/ 215 . 2/ 164/ 165.
(55) راجع جمهرة رسائل العرب : 1/ 47/ 51/ 52/ 58/ 115/ 125/ 127/ 128/ 151/ 160/ 176/ 187/ 233/ 239/ 241/ 243 – 248/ 266.
(56) المصدر نفسه : 1/ 218/ 196.
(57) المصدر نفسه : 1/ 254.
(58) المصدر نفسه : 1/ 228 .
(59) المصدر نفسه : 1/ 225/ 258/ 259/ 466/ 467/ 474. 2/ 280/ 292/ 293/ 297/ 299 – 301/ 324.
(60) راجع الرسائل المتبادلة بين علي ومعاوية في الجزء الأول من جمهرة رسائل العرب ، وكذلك الرسائل التي تصور حروب الخوارج في الجزء الثاني من جمهرة رسائل العرب.
(61) جمهرة رسائل العرب : 2/ 91 – 95 ، 233 ، 309.
(62) المصدر نفسه : 1/ 249/ 286. 2/ 304/ 305/ 307/ 324 – 333/ 336.
(63) المصدر نفسه : 2/ 27.
(64) المصدر نفسه : 2/ 29/ 234/ 254/ 256.
(65) المصدر نفسه : 2/ 211/ 255.
(66) المصدر نفسه : 1/ 66/ 67. 2/ 305.
(67) المصدر نفسه : 1/ 285 ، 2/ 324.

ثانيًا : من حيث الشكل :

لما كانت مهمة الرسول – صلى الله عليه وسلم – تنصب أساسًا على الإفهام ، وتبليغ الرسالة إلى كافة الناس ؛ فقد خلت كتبه من التنميق والتأنق ومن آثار التروي والتكلف ، ولقد اقتدى الصحابة بهذه الكتابات ، فلم تتجه معظم كتاباتهم إلى التأنق والتروي ، إذ لا نجد في رسائل النصف الأول من القرن الأول الهجري إلا رسائل قليلة[68] اتجه أصحابها إلى التنميق كرسالة عمرو بن العاص إلى أبي بكر التي يقول فيها : « إني سهم من سهام الله ، وأنت بعد الله الرامي بها ، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها ، فارم به شيئًا إن جاءك من ناحية من النواحي »[69]، وكرسالة عثمان بن عفان إلى معاوية التي يقول فيها : « إن الفتنة قد أخرجت خَطْمها وعينيها ، فلم يبق إلا أن تثب ، فلا تنكأ القرح »[70].

ويتضح في هاتين الرسالتين الميل إلى الإيجاز والتشخيص ، مما يدل على اتجاه بعض الكتاب إلى التنميق ، ولعل لجوء بعضهم إلى الاستشهاد بالقرآن أو تضمينه[71] ، أو الاستشهاد بالشعر[72] ، وتضمين الأمثال[73] مما يؤكد ذلك.

وما أن نتجاوز منتصف القرن الأول الهجري ، حتى نجد عناية الكتاب بالرسائل موفرين لها « ضروبًا من التجويد والجمال الفني ، وكأنما لم تعد الغاية أن تؤدي أغراضها فحسب ، بل أضيف إلى ذلك غاية أخرى ، أن تروع القارئين والسامعين بتحبيرها وتنميقها ، وكأنها قطعة موسيقية ولوحات تصويرية ولم يقفوا

---

(68) لولا الشك الذي يحيط بالرسائل المتبادلة بين الإمام علي ومعاوية ؛ لأمكننا القول بأن الكتابة الفنية قد نالت على يديهما كثيرًا من التطور ، ففي كثير من هذه الرسائل نجد التحبير والتجويد والقدرة على الجدال ، ولعل في وصف الإمام علي لرسائل معاوية بأنها : « محبرة ، وذات أفانين » - (راجع جمهرة رسائل العرب : 1/ 418، 444) – ما يدل على ما كان يراعيه كل فريق من التأنق والتنميق في كتبه .

(69) جمهرة رسائل العرب : 1/ 134 . ولو صحت الرسائل التي أثرت عن عمرو بن العاص ، لأمكننا القول بأنه كان يتمتع بنزعة جمالية ، وقدرة جدلية ، ومما يدل على ذلك ما نجده في هذه الرسائل من تنميق وتحبير ، فهو يميل في بعضها إلى السجع أو الازدواج ، موشيًا إياها بالصور الأدبية ، ولعل وصف عمر له بقدرته على تشقيق الكلام وتزيينه ، وأنه يخرج إلى بُنيّات الطريق ما يؤكد ذلك ، راجع جمهرة رسائل العرب : 1/ 192/ 193/ 200/ 202 – 205 ، وراجع رسالته التي يعتذر فيها إلى معاوية. جمهرة رسائل العرب : 2/ 29. ففيها كثير من التأنق والتحبير.

(70) جمهرة رسائل العرب : 1/ 263.

(71) المصدر نفسه: 1/ 119/ 138/ 144/ 145/ 156/ 165/ 168/ 180/ 183.

(72) المصدر نفسه : 1/ 198/ 199/ 220/ 253/ 276.

(73) المصدر نفسه : 1/ 95/ 96/ 101/ 137/ 163/ 252/ 331/ 350/ 361/ 393.

بذلك عند ظاهرها ، فقد أخذوا ينوعون في معانيها ويفرعون ويطنبون صورًا مختلفة من الإطناب »[74].

ومن مظاهر هذه العناية :

1 – ما نجده من التفكير والتروي في كتابة هذه الفترة :

ويتضح ذلك في رسالة عروة بن الزبير إلى الوليد بن عبدالملك يشفع لكعب العبسي يقول : « لو لم يكن لكعب من قديم حرمته ، ما يغفر له عظيم جريرته ، لوجب أن لا تحرمه التفيؤ بظل عفوك الذي تأمله القلوب ، ولا تعلق به الذنوب ، وقد استشفع بي إليك ، فوثقت له منك بعفو لا يخالطه سخط ، فحقق أمله فيّ »[75]. ولاشك أن الكاتب قد تروى كثيرًا في تدبيج هذه الرسالة ؛ فلقد بدأ بما يوجب العفو عن كعب العبسي لصلته القديمة بعبد الملك ، وانتهي بتأكيد طلب العفو لشفاعة عروة ، وبينهما حرص على استنفار طاقة العفو والرضا عند عبد الملك ، فأخذ في تصوير ماهية العفو المرجو ، فذكر أنه عفو يغفر عظيم الجرائر ، وصوره في صورة شجرة وارفة الظلال يستظل بظلها طالبو العفو فيحقق ما تأمله قلوبهم ، وتمحى به ذنوبهم ، ثم أكد أن عفوه لا يخالطه سخط ، وكأنه يشير بذلك إلى حالة الرضا التي تعقب العفو ، وكان حريصا علي بيان مكانة أطراف الموضوع : كعب العبسي (قديم الحرمة – عظيم الجريرة) ، وعبد الملك بن مروان (أهل للعفو الشامل الموثوق به) ، والكاتب : عروة (أهل للشفاعة) - لكي تؤتي الشفاعة أكلها .

ومما يلاحظ في الرسالة حرص الكاتب على التناسب بين طول الجمل وقصرها بحسب ما يريد تحقيقه من نتائج ، فالجمل المتعلقة بالمستشفَع له والمستشفِع قصيرة ، والجمل المتعلقة بالمستشفَع به طويلة ؛ لأن الإشارة إلى مكانة المستشفَع له ، وما كان من جريرته - في مقام إقرار بواقع قائم لا يحتاج إلى بسط في الكلام ، وكذلك الأمر بالنسبة للمستشفع لما له من رصيد سابق - عند المستشفع له والمستشفع به - جعله يركن إليه في قبول الشفاعة وطلبها ، ولا يحتاج إلى التذكير به وبسط الكلام فيه (قد استشفع بي – فوثقت له منك – فحقق أمله فيَّ) ، أما المستشفع به ، فالأمر يختلف ، إذ يجب إظهار ما يحثه على تحقيق الغرض من الشفاعة ، وبيان ما يتمتع به من فضائل ، وما يتسم به من فضل ومكانة .

ولم ينس الكاتب أن يوشي رسالته ببعض القيم الموسيقية كالسجع في (قديم حرمته – عظيم جريرته ، القلوب – الذنوب)

2 – ميل بعض الكتاب إلى السجع أو الازدواج يوشون بهما كتاباتهم :

ولعل ذلك يتضح في قول عبدالرحمن بن الأشعث إلى ابن القريَّة كاتبه حين ثار على الحجاج : «إني أريد أن أكتب إلى الحجاج كتابًا مُسجَّعًا ، أعرفه فيه سوء فعاله،

---

(74) الفن ومذاهبه في النثر العربي : 106.

(75) جمهرة رسائل العرب : 2/ 254 ، وراجع أمثلة للصفة نفسها في المصدر نفسه : 2/ 99/ 102/ 129/ 140/ 144/ 172/ 203/ 234.

وأبصره قبح سريرته »[76]، ويعلق دكتور شوقي ضيف على ذلك بقولـــــــــــــه : « وكأنما يريد أن يضيف إلى حجته في الثورة حجة فنية من بلاغة كاتبه »[77].

فإن لم يوش الكاتب كتابه بالسجع فإنه يميل إلى الازدواج والترادف وتوازن الجمل، ومن أخصب المجـــالات احتفالاً بهـــــــذه المحسنات ميدان الرســـــائل الدينية والوعظيَّة[78].

3 – ميل الكتاب إلى اصطناع الصور البيانية التي لا تصدر إلا عن روية وتفكير:

ومن ذلك ما نجده في كتاب الحجاج لما حضرته الوفاء إلى الوليد بن عبدالملك : « أما بعد ، فقد كنت أرعى غنمك ، وأحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه ، فجاء الأسد فبطش بالراعي ، ومزق المرعى كل ممزق ، وقد نزل بمولاك ما نزل بأيوب الصابر ، وأرجو أن يكون الجبار أراد بعبده غفرانًا لخطاياه ، وتكفيرًا لما حمل من ذنوبه »[79].

إننا أمام صورتين : صورة الراعي /الحجاج ، والغنم / الرعية ، وصورة الأسد الباطش / المرض والموت ، ورغم ما يتمتع به الراعي من صفات الحياطة والرعاية والنصح والشفقة للرعية ، فقد جاءته قوة لا قبل له بها فبطشت به ومزقت الرعية ، وكأنها لم ترع له حسن صنيعه ، فتبدل حاله من قوة إلى ضعف ، ومن قيام بأمر الحياطة والنصح والشفقة إلى طالب لها ، ومن هنا يستدعي صورة نبي الله أيوب ، ذلك العبد الصابر على الابتلاء ، وما تبع ذلك من رحمة الله وفضله عليه ، لعله يلقى مثل جزائه ، ولذا يختم الرسالة بالضراعة التي تكشف ضعف الجبار / الحجاج أمام قوة الجبار / الله ، راجيا أن تُغفر خطاياه ، وتُكفَّر ذنوبه .

ولعل في ميل الكتاب إلى اصطناع الصور البيانية مع ما يوفرونه لكتابتهم من جمال موسيقى ، ما يؤكد اتجاه الكتابة نحو الرقي الفني ، بيد أن النمط العام للكتابة في القرن الأول هو النمط العربي ، فعناصر الجمال والتجويد لم تكن متكلفة ، ولم تظهر بصورة مسرفة ، ويرجع ذلك إلى أن القائمين على الكتابة في القرن الأول كانوا – في أغلبهم – عربًا ؛ فقد كان أكثر القائمين على ديوان الرسائل عربًا[80] ، كما أن أعلام

---

(76) الأخبار الطوال للدينوري : 318.

(77) العصر الإسلامي : 469 . وراجع رسالة ابن القرية في جمهرة رسائل العرب : 2/ 192.

(78) راجع أمثلة لهذه الرسائل في جمهرة رسائل العرب : 2/ 96/ 99/ 102/ 158/ 159/ 164/ 193/ 207/ 234/ 238/ 254/ 276/ 305/ 308/ 314 - 332.

(79) جمهرة رسائل العرب : 2/ 252 ، وراجع أمثلة لبعض الصور في المصدر السابق : 2/ 86/ 101/ 140/ 144/ 158/ 159/ 192/ 193/ 207 – 209/ 251/ 252/ 324/ 329/ 334.

(80) راجع الوزراء والكتاب : 16/ 24/ 34/ 35/ 41.

الكتابة في هذا القرن هم الخطباء ، ولذلك كانت الكتابة صورة لخطابتهم وبلاغتهم. وبمقارنة بسيطة يتضح مدى تطابق أسلوب الخطابة والكتابة في هذا القرن[81].

الكتابة الفنية في القرن الثاني الهجري

يرى الدكتور طه حسين أن أول القرن الثاني للهجرة هو الذي شهد ظهور الحياة العقلية ، وهو الذي شهد مظهر هذه الحياة العربية ، وهو نشأة النثر الفني[82]. وأن أول من أثار في نفوسنا لذة الكتابة الفنية في العصر الإسلامي هو عبد الحميد وابن المقفع[83] ، ولاشك أن في هذا القول كثيرًا من الصواب ، فلقد حشد عبد الحميد وابن المقفع كثيرًا من القيم الجمالية التي تؤثر في نفوس القراء ، ولكنهما ليسا أول من أثار لذة الكتابة في العصر الإسلامي ؛ فطبيعة الأشياء ترفض هذا التجديد ، خاصة وقد لاحظنا في حديثنا عن القرن الأول ، عناية الكتاب بتوفير عناصر الجمال لكتاباتهم. وغاية ما يمكن قوله عن عبد الحميد وابن المقفع أنهما استطاعا بما لديهما من ثقافات متنوعة ، أن يحدثا مزجًا بين الطريقة العربية في الكتابة – وهي النمط العام للكتابة الفنية في القرن الأول – وبين عناصر التأثير الأجنبي التي استخلصوها من ثقافاتهم الأجنبية .

فالقيم الجمالية ، من سجع أو ازدواج أو توازن جمل أو صور أدبية وغير ذلك مما نجده عند عبد الحميد ، كانت موجودة في كتابات القرن الأول ، واستطاع عبدالحميد بما أوتي من عبقرية فنية أن يبسط هذه القيم ويركزها في كتاباته ، إذ يعد رائد الإطالة في الكتابة الفنية ، وقد استطاع أن يضيف إليها عصارة ثقافاته المتعددة ، فبدت في ثوب جديد لم يعرفه النثر العربي قبله .

وقد ساعدت عدة عوامل على تطوير الكتابة الفنية في هذا القرن ، وأهمها :

1 – نقل تراث الأمم الأخرى :

لقد كان من الطبيعي أن يؤتي الامتزاج بين العرب وغيرهم من الأمم الأخرى ثماره في هذا القرن ، وأن يحدث نقل ثقافات هذه الأمم إلى اللغة العربية ، وإذا لاحظنا سيادة العنصر الأجنبي على الدولة في هذا القرن – وخاصة بعد قيام دولة بني العباس – فقد بات من الطبيعي أن تصطبغ الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية بالطابع الأجنبي ، يقول الأستاذ أحمد أمين : « فلما جاء العصر العباسي وأمعن المسلمون في

---

(81) راجع على سبيل المثال خطب الحجاج بن يوسف الثقفي في البيان والتبيين : 2/ 138 – 140/ 307/ 308. وخطبة قطري بن الفجاءة : 126/2. وراجع قول الجاحظ عن الحسن البصري : أما الخطب (الدينية) فإنا لا نعرف أحدًا يتقدم الحسن البصري فيها. البيان والتبيين : 1/ 354. وراجع أيضًا ما كتبه دكتور شوقي ضيف عن الصنعة في الخطابة الأموية : الفن ومذاهبه في النثر العربي: 80 – 95. فسيتضح من كل ذلك تماثل أساليب الكتابة والخطابة في هذه الفترة .

(82) من حديث الشعر والنثر : 587.

(83) نفسه : 594.

الحضارة ، وسادت العناصر غير العربية ، رأوا أن حياة الحضارة لابد أن تستند إلى العلم ، فمالية الدولة تحتاج إلى حساب دقيق ، وعيشة الحضارة المركبة تحتاج إلى أدوية مركبة ، وعلاج مركب ، ومتى لجأ الناس إلى نوع أو نوعين من العلوم وأخذوا يعالجونه من الأمم الأخرى ، دعاهم الشغف إلى تعرف ما عند الأمم المختلفة من العلوم جميعها ، ولو لم يكن لهم بها حاجة ماسة مباشرة »[84].

ولاشك أن نقل ثقافات الفرس والهند واليونان إلى العربية[85] قد أثر في شكل الكتابة ومضمونها ، ولعل أهم ما نقل خلال هذه الثقافات نظرة هذه الأمم إلى البلاغة. قال مُعَمَّر، أبو الأشعث : « قلت لبَهْلة الهندي أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند ... ما البلاغة عند الهند؟ ، قال بَهْلة : عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة ، ولكن لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها ، قال أبو الأشعث: فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها : أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة ، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ، ولا يصفيها كل التصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيمًا ، أو فيلسوفًا عليمًا ، ومن قد تعود حذف فضول الكلام ، وإسقاط مشتركات الألفاظ ، وقد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة ، لا على جهة الاعتراض والتصفح ، وعلى وجه الاستطراف والتظرف »[86].

ولاشك أن هذه المعايير – وإن كانت خاصة بالخطابة – إلا أنها ذات انعكاس قوي على الكتابة ، فاختيار الألفاظ ، وصياغتها بحيث لا يخفى مدلولها ، ومراعاة أقدار المخاطبين - من أهم الخصائص التي طبعت الكتابة في القرنين الثاني والثالث ، وفي قول العتَّابي : « وهل المعاني إلا في كتب العجم والبلاغة ؟ ، اللغة لنا والمعاني لهم »[87] - ما يدل على تأثير الثقافات الأجنبية في الأدب العربي .

2 – ظهور بيئة المتكلمين :

---

(84) ضحى الإسلام : 1/ 215.

(85) راجع عن حركة الترجمة في القرن الثاني : ضحى الإسلام : 1/ 264 ، العصر العباسي الأول لشوقي ضيف: 109 – 113 ، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني للدكتور مصطفى هدارة : 87 – 108، التيارات الأجنبية في الشعر العربي للدكتور عثمان موافي : 117 – 126 .

(86) البيان والتبيين : 1/ 92 وراجع بعض أقوال الأمم الأخرى عن البلاغة ، المصدر نفسه : 1/ 88 .

(87) كتاب بغداد لابن طيفور : 87 .

لقد أفادت هذه البيئة ، وخاصة المعتزلة من حركة الترجمة ، فاتجهت إلى الفلسفة والمنطق للاعتماد عليهما في مباحثها الكلامية ، ومناظراتها الجدلية ، فانعكس أثر ذلك على النثر العربي ، ولا ينحصر هذا التأثير على إدخال « الألفاظ والمصطلحات الجديدة فحسب ، بل أيضًا من حيث ذخائر الفكر الفلسفي اليوناني والعربي التي التقت في أوعيته وأوانيه ، والتي جعلته يعرف صورًا من تحليل الأفكار وتركيبها لا عهد له بها، كما جعلته يعرف القياس المنطقي الصحيح ، وطرق الاستدلال والتعليل ، ودقائق المعاني ، وفرق بين السبب والمسبب ، وما بين الجنس والنوع .. وما بين الحجة والشبهة، والممكن والمحال ، والمعقول والموهوم ، والبرهان الجلي والبرهان الخفي ، مما جعل الفكر العربي يتحول إلى ما يشبه كنزًا سائلاً بما لا يحصى ولا يستقصى من الخواطر والمعاني»[88].

3 – إسهام الملاحظات البلاغية في رسم صورة للكتابة الراقية :

تعددت في هذا القرن ملاحظات للكتاب والبلغاء تهدف إلى رسم صورة مثالية لما يجب أن تكون عليه بلاغة الكلام ، فالبلاغة عند عبد الحميد بن يحيى الكاتب مثلاً : « ما رضيته الخاصة وفهمته العامة »[89] ، وهي عند ابن المقفع : «الإيجاز»[90] ، وهي - عنده - أيضًا : « التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها »[91] ، وعند العتابي : « إظهار ما غمض من الحق ، وتصوير الباطل في صورة الحق »[92].

وإذا كان هذا هو الإطار العام لبلاغتهم – وهو إطار يمكن وصفه بالسهل الممتنع – فإنهم قد بينوا كيفية التوصل إلى هذا الإطار، فالألفاظ يجب أن تكون مشاكلة للمعاني ، غير قلقة في أماكنها ، لا يمكن تقديمها أو تأخيرها ، ويجب أن تكون بعيدة عن التكلف والتوعر ، وعن الغريب والابتذال [93].

ولقد كان لهذه الملاحظات أثرها في تطوير الكتابة الفنية ، إذ أصبحت الطابع العام في هذا القرن ؛ وذلك لأنها تصدر عن الطبقة المثقفة من الكتاب ، تلك الطبقة التي مزجت بين الثقافتين العربية والأجنبية ، فكانت لآرائها قيمة وصدى في نفوس غيرها من الكتاب ، ولعل إحساس هذه الطبقة بضرورة تطوير الكتابة الفنية وتكوين طبقة عريضة من الكتاب - كان وراء توجيه عبد الحميد رسالته إلى الكتاب للنهوض بهم ثقافيًا وأخلاقيًا .

ولقد ساعدت هذه الملاحظات – بالإضافة إلى التطور الحضاري الذي حققه المجتمع – على ظهور الأسلوب المولد ، وهو أسلوب يتميز بالعذوبة اللفظية ،

---

(88) العصر العباسي الأول لشوقي ضيف : 443 .

(89) ثمرات الأوراق : 335.

(90) البيان والتبيين : 1/ 116.

(91) أمالي المرتضي : 1/ 136.

(92) البيان والتبيين : 1/ 113.

(93) راجع الصناعتين : 161 ، البيان والتبيين : 1/ 106/ 136. أمالي المرتضي : 136.

ووضوح المعنى ، فهو نمط أوسط من التعبير يرتفع عن الساقط السوقي ، وينحط عن البدوي الوحشي[94].

ولاشك أن العوامل السابقة قد ساعدت على تطوير الكتابة في هذا القرن ، ويمكن أن نتبين هذا التطور من حيث المضمون ، ومن حيث الشكل .

أولاً : من حيث المضمون :

نجد أن أهم ما يمكن ملاحظته على مضمون الكتابة في هذا القرن :

1 – تعميق بعض موضوعات الكتابة في القرن الأول :

أولاً : الرسائل السياسية :

دارت بعض الرسائل السياسية في القرن الأول حول وضع دستور للحرب ، ورسم صورة للحاكم وعنايته بالرعية وبالجنود[95] ، وكان مضمون هذه الرسائل مضمونًا عربيًا خالصًا توجهه النظرة الإسلامية ، فعلاقة الحاكم بالرعية يجب أن تدور حول الترفق بهم والعناية بسلاحهم ، وأما سياسة الحرب ، فتدور حول رعاية أهل الذمة ، وبث العيون على العدو، وتقسيم الجيش إلى سرايا وطلائع ، ومشـــاورة أهل الرأي ، والتربص للعدو حتى تُعرف مقاتله .

وما إن يأتي القرن الثاني بروافده الثقافية المتعددة ، حتى يعمق الكتاب هذه المفاهيم ويضيفوا إليها من معين ثقافاتهم ، فمن يرجع إلى رسالة عبد الحميد الكاتب إلى عبد الله بن مروان[96] ، أو رسالة الصحابة لابن المقفع[97] ، يجد نفسه أمام مفاهيم عميقة تشمل الراعي والرعية ، فلم يهمل عبد الحميد وابن المقفع جانبًا مما يقوم به الحاكم أو الرعية إلا وقد أشارا إليه ، إذ نجد عبد الحميد يتكلم عن آداب القائد في سلوكه مع نفسه ، ومع حاشيته ، ورؤساء جيشه ، ونجده يتحدث عن سياسته لجيشه ، وما يجب أن يتخذه من شرطة وقضاة ، كما نجده يتحدث عن تنظيم الجيش الداخلي وأسلحته ، ونجد ابن المقفع يتكلم عن طرق إصلاح الجند وتأديبهم ، ومعرفة ظاهر أخبارهم وباطنها ، وتحديد موعد لأرزاقهم ، واختيار أصلحهم لقيادتهم ، كما يتكلم عن ضرورة توحيد اختلاف الأحكام وتناقضها باختلاف المذاهب ، كما يتكلم عن حاشية الأمير وسياسة جباية الخراج ، وضرورة تعهد أهل البلاد على اختلاف ميولهم السياسية .

ولاشك أن استعانتهم بآداب الفرس ومنطق اليونان في عرض هذه السياسات مما يدل على ما أصاب هذا الجانب من الرسائل السياسية من عمق وإثراء.

---

(94) راجع عن الأسلوب المولد البيان والتبيين : 1/ 136/ 144 ، والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني / 24 .

(95) راجع جمهرة رسائل العرب : ط2 : جـ1 : 210 – 213/ 234/ 258/ 259 ، جـ2 : 280/ 292/ 293/ 297/ 299/ 324 .

(96) جمهرة رسائل العرب : 2/ 406 – 455 .

(97) نفسه : 3/ 30 – 48 .

ثانيًا : الرسائل الإخوانية :

لقد كانت الرسائل الإخوانية في القرن الأول قليلة العدد إذا قارناها بمثيلتها في القرن الثاني ، كما كانت تصطبغ في معظمها بالصبغة الدينية ، أما في هذا القرن ، فلقد تحررت من هذه الصبغة ، واصطبغت بصبغة الترف الحضاري المتأنق ، ومن خير الأمثلة على ذلك ما كتبه أبو هرون العبدي إلى زبيدة بنت جعفر ، زوج الرشيد ، وقد ساءها موت قرد لها، ونالها من الغم ما عرفه الصغير والكبير من خاصتها : « أيتها السيدة الخطيرة ، إن موقع الخطب بذهاب الصغير المُعجب ، كموقع السرور بنيل الكثير المفرح ، ومَنْ جَهل قدر التعزية على التافه الخفي ، عَمِيَ عن التهنئة بالجليل السني ، فلا نقصك الله الزائد في سرورك ، ولا حرمك أجر الذاهب من صغيرك »[98].

لقد اتسع مجال التعزية هنا – نتيجة للترف الحضاري – لتشمل التعزية في الحيوان ، فالتعزية هنا تعزية في موت قرد السيدة زبيدة بنت جعفر ، زوج هارون الرشيد ، وقد أخرج الكاتب هذه التعزية في صورة إنسانية مرهفة الحس ، شاعرة بألم الفقد ، سواء أكان الفقيد إنسانا أو حيوانا ، مقدرة لقيمة المشاعر الإنسانية ومشاركاتها وجدانيا فيما يسرها أو يحزنها بغض النظر عن كونه تافها خفيا أو جليلا سنيا ، ولقد صدرت الرسالة ببيان مكانة المخاطبة : " أيتها السيدة الخطيرة " ؛ ليؤكد الكاتب أن شرف مقامها وعظمة مكانته لا يقفان حائلا أمام ما تتسم به من رهافة الحس وسمو النفس ، وقد جاءت هذه الصورة الإنسانية في إطار الجملة الاسمية الدالة على ثبات حكمها ، وكأنه يقرر حقيقة غير قابلة للنقاش : " إن موقع الخطب بذهاب الصغير المُعجب ، كموقع السرور بنيل الكثير المفرح " , فالجملة هنا قامت على التقابل بين ذهاب الصغير ، ونيل الكثير ، ولكنها وحدت الأثر بين الأمرين ؛ لأن الصغير الذاهب كان محل إعجاب النفس ، والكثير الآتي كان محل سرور النفس أيضا ، ومن هنا تشابه وقعهما على النفس ، ولذا يبدو سمو النفس عندما تتعاطف إنسانيا مع الصغير المعجب الذاهب حتى ولو كان قردا ، ويبني الكاتب على ذلك الحكم أهمية المشاركة الوجدانية لهذه النفس السامية ، فتأتي جملة الشرط التي تتسم في حكمها بالتعميم أيضا : " ومَنْ جَهل قدر التعزية على التافه الخفي ، عَمِيَ عن التهنئة بالجليل السني " ، لتنفي ما قد يكون من تقابل ظاهر بين التعزية بالتافه الخفي والتهنئة بالجليل السني ، إذ وحدت أثر عدم المشاركة الوجدانية في الأمرين في إطار الجهل والعمي ، وكلاهما دال على ظلام نفسي غير قادر على التسامي إلى رحابة الإنسانية ، ثم يختم الرسالة بجملتين دعائيتين تبين أولاهما حرصه على زيادة ما يسر المخاطبة : " فلا نقصك الله الزائد في سرورك " ، وتؤكد الثانية سمو مشاعرها وعدم ضياع أجرها من الله : " ولا حرمك أجر الذاهب من صغيرك " ، ونلاحظ هنا أن براعة الكاتب تتجلى

---

(98) جمهرة رسائل العرب : 3/ 289 ، وراجع أمثلة على هذا التأنق الحضاري ، في المصدر نفسه : 2/ 370 ، 3/ 55/ 57/ 107/ 148/ 152/ 153/ 164/ 397/ 398/ 399.

في بدء الرسالة بذكر موقع الحزن على الصغير الذاهب ، وفي انهائها بالدعاء بعدم الحرمان من أجر الحزن على الصغير الذاهب ؛ ليبقي في الذهن موضوع التعزية واضحا جليا .

2 – ظهور المقالة الأدبية الخالصة :

لقد تحولت بعض الرسائل الإخوانية إلى مقالات أدبية خالصة ، تبحث في موضوع الرسالة بحثًا أدبيًا مستفيضًا ، ومن ذلك ما كتب عن موضوع الإخاء ، فالموضوع يخرج عن حيز الأشخاص الذين كُتب لهم ، إلى موضوع أدبي عام يعالج الإخاء ، ويبين أسسه ودعائمه ، ويصف الأخوة الصادقة[99].

ومن موضوعات هذه المقالات أيضًا ، موضوع العتاب ، فالكاتب يخرج عن حيز الأشخاص إلى البحث عن اختلاف طبائع الناس ، وعن حق الوفاء للإخوان والمحافظة عليهم ، وأن كل شيء يجد الإنسان بديلاً عنه إلا ذاته وإخوانه[100].

ومن هذه الموضوعات أيضًا التعزية ، فالكاتب يبحث في أمر الدنيا والآخرة ، وكيف أن الله ساوى بين الخلائق في الموت ، وكيف أن وجود الخير والشر في هذه الدنيا للابتلاء[101].

3 – تعبير النثر عن بعض موضوعات الشعر :

نافس الكتابُ الشعراءَ في التعبير عن موضوعاتهم الشعرية ، ومن هذه الموضوعات الوصف والمدح والهجاء ، والكاتب حين يتناول هذه الموضوعات فإنه يبدع فيها ويفرع معانيها ويستقصيها ، فتبدو قطعا أدبية رفيعة المستوى .

ومن موضوعات الوصف التي تناولوها ، وصف السلاح ووصف الخيل[102] ، ووصف الصيد[103] ، ووصف المطر[104] ، ووصف القلم[105] ، ووصف الخط[106].

وأما المدح فقد أثرت عن هذا القرن رسالة طويلة يمدح فيها يحيى بن زياد الرشيد[107] ، ويمكن القول بأنه لو قيست إليها أي قصيدة مدح لتضاءلت بالنسبة إليها ،

---

(99) راجع جمهرة رسائل العرب : 2/ 372 ، 3/ 54/ 61/ 63/ 119/ 120 . ويرى الدكتور شوقي ضيف أن ترجمة ابن المقفع للأدب الكبير وما جاء في كتاباته من حديث عن الإخاء والمودة كانت مادة غزيرة للكتاب كي يستمدوا منها كل ما يريدون من تصوير للإخوة الحقة والصداقة الصادقة ، العصر العباسي الأول : 492.

(100) جمهرة رسائل العرب : 3/ 101 - 107.

(101) المصدر نفسه : 3/ 110 - 112.

(102) المصدر نفسه : 2/ 435 - 438.

(103) المصدر نفسه : 2/ 464.

(104) المصدر نفسه : 3/ 120/ 121.

(105) زهر الآداب : 2/ 619.

(106) جمهرة رسائل العرب : 3/ 159.

(107) المصدر نفسه : 3/ 209 - 217.

ولن نكون مغالين إذا قلنا إنها تـأريخ لحيـاة الرشيد وتعديد لفضـائله ، إذ يبدأ يحيـى بـن زياد بالدعوة للرشيد بالسلامة والعز والنصر والهدى والرفعة حتـى يَخلد ذكره ويـدوم عدله ، ثم يمهد لتعديد محامده ، بأن يذكر طبقات الناس ، فهم بين حاسد ، وذوي هوى ، وموثق معصوم من غل الحسد وبدع الآراء ، لينتهي إلى أنه من الصنف الأخير ، ثم يعدد محامد وفضله ، فيذكر عراقة أصله ، وحسن أخلاقه ، وجمـال صـورته ، وكثـرة عطائه ، ثم يذكر حسن سياسته للرعية ، وما حققه من الأمن والأمان لطبقات الشعب ، ثم ينوه بفتوحاته وسياسته في الحرب ، ولا ينسى أن يرسم صـورة لحياتـه ليلاً ونهـارًا وملازمته للفقهاء ومراقبته لله ، ثم يختمها بمدح ولي العهد ، والدعاء لهم جميعًا .

أما الهجاء . فهو مر لاذع ، ومن ذلك هجـاء أبـي العتاهيـة للفضـل بـن معد بـن زائدة ، وكان قد استرفده وطلب نواله فرده : « أمـا بعد. فـإني توسلت إليك فـي طلـب نائلك بأسباب الأمل وذرائـع الحمد ، فرارًا من الفقر ، ورجـاء للغنـى ، فـازددت بهمـا بُعدًا مما فيه تقربت ، وقربًـا مما فيـه تبعدت ، وقد قسمت اللائمـة بينـي وبينك ؛ لأنـي أخطـأتُ فـي سؤالك ، وأخطـأتَ فـي منعـي ، أُمرتُ باليـأس عن أهل البخـل فسألتُهم ، ونُهيتَ عن منع أهل الرغبة فمنعتَهم »[108].

4 – تعبير الكتابة عن المذاهب الكلامية :

ومن خيـر مـا يصـور ذلك رسـالة أبـي الربيـع محمد بـن الليث التـي كتبهـا عـن الرشيد إلى قسطنطين ملك الروم[109] يدعوه إلـى الإسلام أو الجزيـة ، وهـي تـدور فـي معظمها حول بيـان وحدانيـة الله ، وبيـان علامـات النبـوة ، وآيـات الرسـالة ، وتعد هذه الرسالة مبحثًا كلاميًا من مباحث المتكلمين ، إذ نجد الكاتب يثبت وحدانية الله من خلال الظواهر الكونية ، ومن خلال الإنسان نفسه ، ثم يُفند دعوى النصارى في أن الله ثالـث ثلاثة ، ثم يُبين أمر النبـي – صـلى الله عليـه وسلم – مـن اختيـار الله لـه ، ومكانتـه بـين العرب ، وكيفية نشره للإسلام مـع عنـاد العـرب ، وتقريـره لنبوتـه ، مـع بيـان علامـات النبوة بالدليل العقلي وبالقرآن ، ثم يعود مـــــرة أخرى لمناقشة وحدانية الله ، ثم ينتقل لبيان علامات النبوة في التوراة والإنجيل .

والكاتب في كل ذلك يعتمد على ثقافته الواسعة المتعددة الجوانب ، وقدرتـه علـى الجدال ، وتفنيد الحجج ، مما يعطي صورة واضحة لما كان يجري فـي بيئـة المتكلمين في هذه الفترة.

ثانيًا : من حيث الشكل :

وأهم ما يمكن ملاحظته من تطوير على شكل الكتابة الفنية في القرن الثاني هو:

1 – الميل إلى التروي والتسلسل المنطقي :

---

(108) جمهرة رسـائل العـرب : 3/ 427- 428 ، وراجـع رسـالة أخـرى لجبـل بـن زيـد : المصـدر نفسه : 3/ 124.

(109) المصدر نفسه : 3/ 217 – 274 . ومحمد بن الليث من موالي بنـي أميـة ، كتب ليحيـى بن خالد ، وكان بليغًا مترسلاً كاتبًا فقيهًا ، متكلمًا بارعًا واعظًا في رسائله . الفهرست : 175.

وقد لاحظنا هذه الظاهرة في نثر النصف الثاني من القرن الأول ، إلا أنها تبدو واضحة جلية في كتابة القرن الثاني. فالكاتب يتأنى في اختيار ألفاظه وصياغتها ، معتمدًا على التسلسل المنطقي في سرد معانيه وتفريعها ، وتوفية كل معنى منها ، ومن ذلك قول عبدالحميد الكاتب من رسالته يصف الإخاء : « فإن أَوْلى ما اعتزم عليه ذوو الإخاء ، وتواصل عليه أهل المودَّات ، ما دعا أسبابَه صدقُ التقوى ، وَبُنِيْتْ دعائُمه على أساس البِرّ ، ثم أَنْهَدَ البناءَ حَريزُ التَّواصلِ ، وشيَّده مُسْتَعْذَبْ العِشْرةِ ، فادَّعَمَ قويًا ، وصَفا مُونِقًا ، وأَخْلَصَتْهُ المِقَةُ مُنْعَطِفَةً ، وسَكَنَتْ بِهِ القلوبُ أَنِيسَةً ، وسَمَتْ من مُوَاصَلَتِهِ الهِمَمُ مُسْتَعْلِيَةً عن كل زائغٍ مُعْتاقٍ ، ومَخُوفٍ عَارِضٍ يخْتَرِمُ مُسْكَةَ الإخاءِ ، وَيَحْتَزُّ مَرْبُوبَ المِقَةِ ..... »[110].

فالكاتب يجعل الإخاء بناء ، أسسه التقوى والبر، ويقوم التواصل ومستعذب العشرة على تشييد ، ثم تجمله المقة والمحبة ، فيكون أهلاً لأن تسكنه القلوب وتطمئن إليه ، ولعلنا نلمح أن كل ذلك يتم في تسلسل منطقي ينم عن قدرة فكرية عالية .

2 – التراوح بين الإيجاز والإطناب :

غلب الإيجاز على كتابة النصف الأول من القرن الأول ، وما أن تقترب من بداية القرن الثاني ، حتى يجد الإطناب مكانه في الكتابة خاصة في بعض الرسائل الدينية[111] ، والسياسية[112]. فنجد الكتاب يعبرون عن المعنى الواحد بأداءين أو أكثر ، ولقد كان من صفات عبد الحميد أنه أول من أطال الرسائل[113] ، ويعلل بعض الباحثين صفة الإطالة التي ظهرت في القرن الثاني بأنها ترجع إلى التأثير الفارسي ، فقد كان الفرس يدعون إلى تأليه ساداتهم وكبرائهم ، ويفخمون من شأنهم ، وكان هذا يقتضي أن يطيلوا الكِتاب[114].

ومع ذلك فقد كان للإيجاز مكانه في رسائل هذا القرن ، فابن المقفع ، يرى أن البلاغة هي الإيجاز[115] ، كما يدعو جعفر بن يحيى الكتابَ أن يجعلوا كتبهم كالتوقيعات[116].

---

(110) جمهرة رسائل العرب : 2/ 372 – 375 ، وراجع أمثلة لهذه الصفة ، المصدر نفسه : 2/ 345/ 351/ 355/ 307/ 369/ 404 – 455/ 464. 3/ 30 – 56/ 58/ 63 – 70/ 101 – 107/ 112 – 117/ 155/ 217 - 274.

(111) المصدر نفسه : 2/ 307/ 322/ 324/ 326/ 329.

(112) تاريخ الطبري : 5/ 380.

(113) مروج الذهب : 3/ 106.

(114) أمراء البيان لمحمد كرد علي : 1/ 21/ 22.

(115) البيان والتبيين : 1/ 116.

(116) أدب الكتاب : 134. وراجع أمثلة للإيجاز في جمهرة رسائل العرب : 2/ 344/ 369/ 370/ 371/ 397. 3/ 54 – 60/ 73/ 108/ 110/ 146/ 150/ 155/ 157/ 190/ 191/ 289/ 294.

3 – العناية بالقيم الموسيقية :

اهتم الكتاب في النصف الثاني من القرن الأول بالقيم الموسيقية ، فوجدنا السجع والازدواج والترادف وتوازن الجمل إلى غير ذلك ، وبخاصة في الكتـــابة الدينية ، مما جعل بعض الباحثين يرى أن هذه الرسائل « هي التي استعار منها سالم وتلميذه عبدالحميد أسلوبهما الكتابي في الرسائل السياسية »[117].

وأيًا ما كان الأمر فقد تفنن الكتاب في العناية بأسلوبهم بعيدًا عن التكلف ، ليتكامل إمتاع العقل والقلب معًا ، ومن الأمثلة على ذلك رسالة إبراهيم بن سيابة إلى يحيى بن خالد البرمكي ، وكان قد أنكر منه شيئًا ، فكتب يستعطفه : « للأصيد الجواد، الواري الزناد ، الماجد الأجداد ، الوزير الفاضل ، الأشم البازل ، اللباب الحلاحل ، من المستكين المستجير ، البائس الضرير ، فإني أحمد الله ذا العزة القدير إليك وإلى الصغير والكبير ، بالرحمة العامة ، والبركة التامة .

أما بعد ، فاغنم واسلم ، واعلم – إن كنت تعلم – أنه من يَرحم يُرحم ، ومن يحرم يُحرم ، ومن يُحسن يَغنم ، ومن يصنع المعروف لا يعدم ، وقد سبق إلى تغضُّبك عليَ ، وإطِّراحك لي ، وغفلتك عني بما لا أقوم له ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقد ، فلست بحي صحيح ، ولا بميت مستريح ، فررت بعد الله منك إليك ، وتحملت بك عليك ... فإن رأيت – أراك الله ما تحب ، وأبقاك في خير – أن لا تزهد فيما ترى من تضرعي ، وتخشعي ، وتذللي ، وتضعفي ، فإن ذلك ليس مني بنحيزة ولا طبيعة ، ولا على وجه تصنع ، ولا تخدع ، ولكنه تذلل ، وتخشع ، وتضرع ، من غير ضارع ، ولا مهين ، ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك ، إلا لمن التضرع له عز ورفعة وشرف»[118].

4 – العناية بالصور الأدبية :

لقد كان من الطبيعي أن يواكب التأنق الموسيقي تأنق آخر في إبراز الصور الأدبية لتكتمل عناصر الإبداع الفني ، ورائد التصوير في القرن الثاني بلا منازع ، هو عبدالحميد الكاتب ، ويكاد المرء يجزم بأنه لم يدع موضوعًا إلا ووشاه بريشته ، ومن أجمل القطع التصويرية ، قطعته التي يصور فيها رحلته إلى الصيد ، فيقول : « وإني أخبر أمير المؤمنين ، أنا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح ، وأثقف الضواري ، وأكرمها أجناسًا ، وأعظمها أجسامًا ، وأحسنها ألوانًا ، وأحدَّها أطرافًا ، وأطولها أعضاءً، قد ثُقفت بحسن الأدب ، وعُوِّدت شدة الطلب ، وسَبَرت أعلام المواقف ، وخبرت المجاثم ، مجبولة على ما عُوِّدت ، ومقصورة على ما أدبت ، ومعنا من

---

(117) الفن ومذاهبه في النثر العربي : 113.

(118) جمهرة رسائل العرب : 3/ 148- 149 ، وراجع أمثلة لمختلف القيم الموسيقية في المصدر السابق : 2/ 344/ 351/ 357/ 372/ 404/ 406/ 445/ 460/ 464/ 470/ 472/ 486/ 488. 10/3/ 55/ 73/ 101/ 107/ 112/ 160/ 161/ 183/ 187/ 191/ 289/ 307/ 397/ 400.

نفائس الخيل المخبورة الفراهة ، من الشِّهرية الموصوفة بالنجابة ، والجري والصلابة ، فلم نزل بأخفض سير ، وأثقف طلب ، وقد أمطرتنا السماء مطرًا متداركًا ، فربَت الأرض، وزَهَر البقل ، وسكن القَتام من مُثار السنابك ، ومتشعبات الأعاصير ، مهلة أن سِرْنا غَلَوات ، ثم برزت الشمس طالعة ، وانكشفت من السحاب مُسْفرة ، فتلألأت الأشجار ، وضحك النُّوَار ، وانجلت الأبصار ، فلم نر منظرًا أحسن حسنًا ، ولا مرموقًا أشبه شكلاً من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض ، والخيل تمرح بنا نشاطًا ، وتجتذبنا أعنتها انبساطًا ...» [119].

ولاشك أن عبد الحميد يتمتع بقدرة كبيرة على التصوير ، فهو فنان دقيق الملاحظة استطاع أن يرسم بتلك الكلمات صورة أدبية رائعة رأينا من خلالها تلك الجوارح المثقفة، وتلك الخيول النجيبة ، وتلك السماء الممطرة ، وما أعقب ذلك من انكشاف السحب وطلوع الشمس ، وتلألأ الأشجار ، وضحك النوار ، وكأن الطبيعة تضحك مبتهجة ناضرة ، مما جعل الخيل تشاركها هذه البهجة وهذا السرور.

ومن كل ما تقدم يتضح لنا ما حققته الكتابة الفنية في القرن الثاني من تطور ، مما يبشر ببلوغ قمتها الفنية في القرن الثالث.

الكتابة الفنية في القرن الثالث الهجري

بلغت الكتابة الفنية أوج ازدهارها في هذا القرن ، فلقد كانت النهضة الأدبية والفكرية التي شهدها القرن الثاني ، مما ينبئ بما ستحققه الكتابة من تطور في القرن الثالث. يقول الدكتور طه حسين : « إذا لاحظنا الحياة العقلية في أواخر القرن الثاني، رأينا أن العهد الإسلامي لم يشهد حياة أشد منها تعقيدًا ، فهي تتألف من كل هذه العناصر: عنصر عربي خالص في اللغة العربية ، وما يتصل بها من الأدب ، وعنصر ديني هو القرآن والتفسير والحديث ، ثم عنصر يوناني خالص ، هو هذه الفلسفة اليونانية التي أخذت تتدفق على البلاد ، وعنصر آخر فارسي هو الحضارة المادية التي أخذت تغمر الدولة العباسية منذ قيام العباسيين. ولا يكاد يأتي القرن الثالث حتى تكون الحياة العقلية في أقصى ما تصل إليه من الرقي »[120].

ويعرض لنا صاعد الأندلسي صورة لهذه الحياة فيقول : « لما أفضت الخلافة إلى الخليفة السابع منهم (العباسيين) عبدالله المأمون بن الرشيد بن محمد المهدي بن جعفر المنصور ، تمَّم ما بدأ به جده المنصور ، فأقبل على طلب العلم في مواضعه ، واستخراجه من معادنه ... فداخل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة ، وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة ، فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون ، وأرسطاطليس ، وأبقراط ، وجالينوس ، وأقليدس ، وبطليموس ، وغيرهم من الفلاسفة ، فاستجاد لهم مهرة التراجمة ، وكلَّفهم إحكام ترجمتها ، فتُرجمت له على غاية ما

---

(119) راجع جمهرة رسائل العرب : 2/ 464 . وراجع في المصدر نفسه : أمثلة أخرى للصور الأدبية : 2/ 372/ 404/ 435/ 468/ 473 . 3/ 121/ 124/ 398/ 399.

(120) من حديث الشعر والنثر : 605.

أمكن ، ثم حضَّ الناس على قراءتها ، ورغبهم في تعلمها ، فنفقت سوق العلم في زمانه ، وقامت دولة الحكماء في عصره ، وتنافس أولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من إحظائه لمنتحليها ، واختصاصه لمتقلديها ، فكان يخلو بهم ويأنس بمناظرتهم ، ويلتذ بمذاكرتهم فينالون عنده المنازل الرفيعة ، والمراتب السنية ، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء ، والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب ، فأتقن جماعة من ذوي الفنون والتعلم في أيامه كثيرًا من أجزاء الفلسفة ، وسنوا لمن بعدهم منها منهاج الطلب ، ومهدوا أصـــول الأدب ، حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية أيام اكتمالها ، وزمان اجتماع شملها»[121].

وكان طبيعيًا في ظل هذه الحياة أن يتبوأ النثر مكانه الأسمى ، وأن ترقى الكتابة الفنية ، ويمكن أن نرصد هذا الرقي في اتجاهين :

أولاً : من حيث المضمون :

ولعل أهم ما يمكن ملاحظته من تطور على مضمون الكتابة في القرن ما يأتي:

1 – تصويرها لطبقات المجتمع :

ورائد هذا الاتجاه هو الجاحظ ، فلقد استطاع أن يغوص داخل طبقات المجتمع مصورًا بريشته أعماق هذه الطبقات ، فقد تكلم عن الترك والسود والجواري والغلمان والمعلمين واللصوص والحول والعور والبرصان والعرجان ، صور حياة المثقفين كما صور حياة العامة ، وهو في كل ذلك إنما يعرض علينا صورًا واقعية ، لا يتدخل في تشويهها ، وإن تغلغل في تحليلها. ولعل تصويره للبخلاء ، مما يؤكد ذلك ، إذ لم يكتف بالصورة الخارجية لهم ، وإنما دخل إلى أعماق نفوسهم ليكشف التمويه والتشويه الذي يشوب هذه الصورة[122] ، وهو بذلك يرصد العيوب الاجتماعية ، ولكنه لا يقصد إلى تجريح أصحابها أو التشهير بهم[123].

2 – التعبير عن مظاهر التأنق والترف الحضاري :

صورت الكتابة – وبخاصة الإخوانية – حياة التأنق والترف التي ذخر بها مجتمع القرن الثالث ، فلقد تفنن الكتاب في إبداع الأفكار الطريفة للتعبير عن مواقفهم الاجتماعية : فقد تفننوا في دعواتهم إلى التزاور[124] ، وفي إهدائهم[125] ، وفي

---

(121) طبقات الأمم لصاعد الأندلسي : 75/ 76 ، وراجع في حركة الترجمة في القرن الثالث : ضحى الإسلام : 1/ 264. العصر العباسي الأول لشوقي ضيف : 113 – 117 ، والعصر العباسي الثاني لشوقي ضيف : 129 – 142 والتيارات الأجنبية في الشعر العربي:122-128.

(122) راجع قصة محمد بن أبي المؤمل : البخلاء : ص 94.

(123) راجع مقدمة البخلاء للدكتور طه الحاجري : 42.

(124) راجع جمهرة رسائل العرب : 3/ 161/ 360/ 382/ 45/ 36/ 37/ 57/ 328.

(125) المصدر نفسه : 3/ 364/ 426/ 443/ 452 ، 4/ 10/ 17/ 193/ 281/ 297.

عتابهم[126] ، وفي اعتذارهم[127] ، وفي إبداء أشواقهم[128] ، وفي تهنئتهم[129] ، حتى ليمكننا القول بأن الكاتب كان يغوص وراء استخراج فكرة أنيقة تفيض رقة وعذوبة .

3 – التعبير عن أغراض الفنون الشعرية :

استطاع النثر أن ينازع الشعر أغراضه الشعرية منذ القرن الثاني ، ولقد تعمق هذا الاتجاه في نثر القرن الثالث ، فقد روى المسعودي عن أبي العباس المكي نديم محمد بن عبدالله بن طاهر « أنه كان ينادمه ذات ليلة في سنة 250هـ ، فسأله أن يصف له الطعام والشراب والطيب والنساء والخيل. فقال له : أيكون ذلك منثورًا أو منظومًا؟ قال: لا بل منثورًا »[130].

وفي هذا دلالة كبيرة على منافسة النثر للشعر في أغراضه وفنونه ، وذلك لأنه « أيسر وأبسط ، وهو أقدر وأوسع للمعاني ، فيستطيع الكاتب إذا عرض لفن أو لمسألة أن يتناولها من جميع وجوهها ، دون أن يحول بينه وبين الاتجاه فيما يريد وزن أو قافية »[131].

ومن الأغراض الشعرية التي تناولها الكتاب في هذا القرن ، الوصف[132] ، والمدح[133] ، والغزل[134] ، والهجاء[135] ، ولعل أهم تطور طرأ على هذه الفنون ، ذلك الذي طرأ على فن الهجاء – على يد الجاحظ – فقد تحول هذا الفن عنده إلى نوع من التهكم والسخرية .

ولعل خير ما يصور لنا ذلك رسالته في التربيع والتدوير[136] ؛ فلقد بلغ الجاحظ فيها درجة عالية من الهجاء اللاذع الذي أقامه على السخرية والتهكم ، مما جعل بعض الباحثين يعده إمام الهجائيين في العصر العباسي[137].

---

(126) المصدر نفسه : 3/ 381 ، 4/ 35/ 199.

(127) المصدر نفسه : 3/ 372/ 378 ، 4/ 321/ 352.

(128) المصدر نفسه : 3/ 380/ 383 ، 4/ 13/ 290/ 357/ 358.

(129) المصدر نفسه : 4/ 286/ 287/ 289.

(130) مروج الذهب : 4/ 155.

(131) من حديث الشعر والنثر : 608.

(132) راجع جمهرة رسائل العرب : 4/ 449/ 451/ 452. ورسائل الجاحظ : 4/ 204/ 297

(133) راجع جمهرة رسائل العرب : 3/ 354 ، 424 ، 4/ 156.

(134) المصدر نفسه : 3/ 383/ 384 ، 4/ 304/ 357/ 358.

(135) المصدر نفسه : 3/ 373/ 381/ 382 ، 4/ 53 – 55 ، 159 – 163 ، 169 – 172 ، 249 ، 250 ، 349 – 352/ 403.

(136) راجع جزءًا منها في رسائل الجاحظ : 3/ 55 – 107 ، ويعلق دكتور طه حسين عليها فيقول : « فحدثوني أين الشاعر العربي الذي يستطيع أن يبلغ في الهجاء بعض ما بلغه الجاحظ ، وأين القصيدة التي تبلغ في الطول والتفنن ما بلغه الجاحظ ، ونحن نستطيع أن نقرأ هجاء جرير ، وهجاء الفرزدق ، وهجاء الأخطل ، فلن نجد فيه شيئًا يصح أن يقاس بهذا الذي نجده في كتاب الجاحظ » . من حديث الشعر والنثر : 608.

4 – التعبير عن المذاهب الكلامية والفلسفية :

صورت الكتابة في هذا القرن بعض المذاهب الكلامية والمشكلات الفلسفية بأسلوب أدبي رائع ، ورائد هذا الاتجاه هو الجاحظ ، فلقد تكلم عن معنى التوحيد ، في رده على النصارى[138] ، وعلى المشبهة[139] ، كما تكلم عن مشكلة خلق القرآن[140] ، وتحدث أيضًا عن صناعة الكلام وآفاتها[141] ، وعرض لبعض المشكلات الفلسفية ، فتحدث عن كون امتزاج عنصري الخير والشر سببًا في صلاح الكون[142] ، وأن اختلاف الطبائع سببًا في عمارة الأرض[143] ، كما تحدث عن المعرفة ، وهل هي باضطرار أم باكتساب[144].

ثانيًا : من حيث الشكل :

وأهم ما يلاحظ على شكل الكتابة في القرن الثالث :

1 – الميل إلى الحوار والجدال العقلي والتحليل والاستقصاء :

ويتضح هذا في كتابات الجاحظ وسهل بن هارون بصورة أوضح عن غيرهما ، فكل منهما يرصد الحجج ويفندها ، ويتجه إلى التحليل والتعليل واستقصاء المعاني وتفريعها.

ومن ذلك ما نجده من عقد للمفاخرات والمفاضلات بين الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة[145] ، وبين الكلام والصمت[146] ، وبين السودان والبيضان[147] ، وبين الجواري والغلمان[148] ، وبين البطن والظهر[149] ، وبين الزجاج والذهب[150] ، وبين البخل والكرم[151] ، ومن تعليل لعشق القيان[152] ، أو لاختلاف الشعوب في

---

(137) الفن ومذاهبه في النثر العربي : دكتور شوقي ضيف : 188.
(138) رسائل الجاحظ : 3/ 303 - 351.
(139) المصدر نفسه : 4/ 5 - 16.
(140) المصدر نفسه : 3/ 290/ 291.
(141) المصدر نفسه : 4/ 244 - 250.
(142) الحيوان للجاحظ : 1/ 204.
(143) رسائل الجاحظ : 3/ 342 - 349.
(144) المصدر نفسه : 4/ 47 - 65.
(145) رسائل الجاحظ : 1/ 91 - 134.
(146) المصدر نفسه : 1/ 258/ 259 ، 4/ 229 - 240.
(147) المصدر نفسه : 1/ 177 - 226.
(148) المصدر نفسه : 2/ 91 - 137.
(149) المصدر نفسه : 4/ 155 - 166.
(150) جمهرة رسائل العرب : 3/ 395.
(151) البخلاء : 9 - 28.
(152) رسائل الجاحظ : 2/ 170.

صناعتها[153] ، أو لظاهرة عسر كتمان السر[154]، أو لصيرورة الممنوع مرغوبًا[155] ، ومن تحليل لطبيعة الحسد وظواهره[156] ، أو لأسباب العشق وأعراضه[157] ، أو لأسباب الخلطة والمودة[158] ، أو لطبيعة النفس البشرية وفقًا للرغبة والرهبة[159] ، أو من ذم للشيء ومدحه[160].

وكل هذه الموضوعات إنما تقام على أسلوب من الحوار والاحتجاج العقلي والقياس المنطقي.

2 – التراوح بين الإيجاز والإطناب :

ظل للإيجاز والإطناب مكانهما في دنيا الكتابة في القرن الثالث ، ولقد أبدع الكتاب فيهما ، ففي الإيجاز يكثف الكاتب فكرته في عدد قليل من الكلمات ، فإذا ما حاولنا التعبير عنها ، بدت كينبوع تفجر بالمعاني الكامنة[161] ، وفي الإطناب يلجأ الكاتب إلى التأنق والتحبير ، فيؤدي المعنى بأداءين أو أكثر ، وقد يفرع عن هذا المعنى معنى آخر ، ويستقصيه ، وكأنه يستمد من معين لا ينضب[162].

غير أننا نجد الجاحظ ينفرد بظاهرة أخرى ، هي الاستطراد ، فيخرج من موضوع إلى آخر ، دفعًا للملل والسأم الذي قد يصيب القارئ[163] ، حتى لتصبح هذه الظاهرة سمة لأسلوبه .

وهذه الظاهرة لم تكن في النثر قبل الجاحظ ، ولم يُعرف أن أحدًا من الكتاب الذين سبقوه كان يصطنعها ، نقرر ذلك إذا استثنينا بعض الآثار الهندية التي نقلت إلى العربية مثل كتاب كليلة ودمنة ، الذي ترجمه ابن المقفع ، فهو لا يخلو من

---

(153) المصدر نفسه : 1/ 67 - 71.
(154) المصدر نفسه : 1/ 143/ 144.
(155) المصدر نفسه : 1/ 154 - 158.
(156) المصدر نفسه : 1/ 351/ 352 ، 3/ 3 - 21.
(157) المصدر نفسه : 2/ 166 - 170.
(158) المصدر نفسه : 4/ 195 - 196.
(159) المصدر نفسه : 1/ 105.
(160) البخلاء : 116/ 117.
(161) راجع أمثلة لذلك في جمهرة رسائل العرب : 3/ 360/ 363/ 367/ 379/ 381/ 394/ 429 / 430. 4/ 15/ 16/ 25/ 38/ 56/ 169/ 179/ 251/ 297/ 304/ 321/ 355.
(162) راجع أمثلة لذلك في جمهرة رسائل العرب : 3/ 366/ 345/ 359/ 371/ 376/ 406/ 417/ 451 ، 4/ 13/ 24/ 29/ 42/ 48/ 53/ 155/ 158/ 160/ 167/ 175/ 189/ 271/ 282/ 293/ 329/ 347/ 360/ 403.
(163) الحيوان : 1/ 93/ 94 ، 3/ 7.

الاستطراد في كثير من الحكايات التي يعرضها ، ولكن هذا لا يعني أن الاستطراد كان ظاهرة من ظواهر الكتابة العربية قبل الجاحظ[164].

3 – الاهتمام بالقيم الموسيقية :

على الرغم من ظهور النزعة العقلية في أغلب كتابات هذا القرن إلا أن الكتاب لم يهملوا الناحية الموسيقية ، فلذلك نجدهم يوفرون لكتاباتهم ضروبًا من القيم الموسيقية كاعتمادهم على الازدواج ، أو التكرار ، أو الترديد ، أو الترادف ، أو تقطيع الجمل وتوازنها[165] ، وهم بذلك يحققون الإمتاع العقلي والنفسي معًا.

بيد أن ما يمكن ملاحظته على كتابات هذا القرن ، هو ميل بعض الكتاب – وبخاصة كتاب الدواوين – إلى استخدام السجع في كتاباتهم[166] ، مما ينبئ بانتشاره في القرن الرابع ، ولكنه على كل حال لم يكن طابعًا عامًا للكتابة في القرن الثالث ، يقول الدكتور علي الجندي : « إن الكتابة منذ أن عرف العرب الدواوين إلى أوائل القرن الرابع يعد السجع متطفلاً عليها ، بعيدًا عن طبيعتها وروحها ، وأن شارتها العامة هي التوازن أو الازدواج »[167] .

4 – الاهتمام بالصور الأدبية :

اهتم الكتاب في هذا القرن برسم الصور الأدبية ، لتضفي على أساليبهم ألوانًا من الجمال الفني ، غير أن ما يمكن ملاحظته في رسم هذه الصور ، أنها كانت تقوم على التشبيه والمجاز والكتابة عند أغلب الكتاب[168]. بينما نجد الجاحظ لا يعتمد على هذه الألوان في رسم صوره ، وإنما يعتمد في الغالب على مقدرته اللغوية فقط ، إذ لا يعمد إلى الصور الخيالية ، وإنما يعتمد على الواقع المحسوس[169].

ولاشك أن لكلا الاتجاهين قيمته في تحقيق الجمال الفني.

---

(164) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه : 257.

(165) راجع أمثلة لذلك في جمهرة رسائل العرب : 3/ 337/ 339/ 449. 4/ 30/ 32/ 50/ 57/ 167/ 168/ 199/ 251/ 297/ 289/ 326/ 329/ 331/ 334/ 355.

(166) راجع أمثلة لذلك في المصدر السابق : 3/ 318/ 370/ 371/ 372/ 373/ 416/ 420/ 429/ 435/ 442/ 451. 4/3/ 17/ 152/ 159 – 163/ 178/ 179/ 192/ 193/ 246/ 309/ 328/ 330/ 357/ 358.

(167) صور البديع – فن الأسجاع : د. علي الجندي : 112.

(168) راجع أمثلة لهذه الصور : جمهرة رسائل العرب : 3/ 429 ، 4/ 17/ 152/ 175/ 192/ 231/ 233/ 306/ 308/ 360/ 362/ 403.

(169) راجع بعض هذه الصور في الحيوان: 3/ 343 – 354 ، البخلاء: 79/ 80/ 127/ 128/ 131/ 148.

وبعد . فلقد ساعدت عوامل كثيرة على تطوير الكتابة الفنية ، لتبلغ أوج رقيها في القرن الثالث الهجري ، سواء من ناحية المضمون أم من ناحية الشكل ، فالنثر في هذا القرن – كما يقول الدكتور طه حسين : « لم تتغير طبيعته من جهة موضوعاته والفنون التي طرقها فحسب ، ولكن طبيعته تغيرت من ناحية أخرى ، أهم من هذه النواحي ، فهو قد سهل ومرن ولان ، وأصبح طيعًا ، يستطيع الكاتب أن يتصرف فيه كما يحب ، دون أن يستعصي عليه ... وهو لا يلذ العقل وحده ولا الشعور وحده ، ولكنه يلذ العقل والشعور والآذان أيضًا ، لأنه قد نظم تنظيمًا موسيقيًا وألف تأليفًا خاصًا له نسب خاصة ، فهذه الجملة لها هذا المقدار من الطول ، وهذه الجملة تناسب هذا الموضوع ، وإذا قصرت هذه الجملة لاءمتها تلك الجملة ، وإذا ضخمت ألفاظ هذه الجملة كانت الجملة التي تليها على حظ من السهولة ، وهكذا»[170].

ومما تقدم يتضح أن تطور الكتابة الفنية قد قام على أكتاف طائفة من الكتاب المثقفين ، ومن ناحية أخرى فقد دفع هذا التطور كتابًا آخرين إلى مواكبة ركب الثقافة حتى يتسنموا ذرى الفن والمجد .

(170) من حديث الشعر والنثر : 614/ 615.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأساسية :

(1) أدب الدنيا والدين : لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي ت 450هـ. تحقيق مصطفى السقا ، ط3 ، نشر مصطفى البابي الحلبي ، 1973م.

(2) أدب الكتاب : لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي ت 335هـ. نشر محمد بهجت الأثري ، المطبعة السلفية ، 1341هـ.

(3) الأغاني : لأبي الفرج الأصبهاني علي بن الحسين بن محمد القرشي ت 356هـ ، تحقيق إبراهيم الإبياري – دار الشعب ، 1969م.

(4) أمالي المرتضى للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي ت 436هـ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط2 ، دار الكتاب العربي ، بيروت، 1967م.

(5) البخلاء : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت 255هـ ، تحقيق د. طه الحاجري. ط 6 ، دار المعارف بمصر ، 1981م.

(6) البيان والتبيين : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت 255هـ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ط4 ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، 1975م.

(7) تاريخ الرسل والملوك : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، ت 310 هـ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط2 ، دار المعارف بمصر ، 1976م.

(8) ثمرات الأوراق : لتقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد بن حِجة الحموي ت 837هـ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط1 ، مكتبة الخانجي بمصر ، 1971م.

(9) جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة : لأحمد زكي صفوت. جـ1، جـ2، جـ3، الطبعة الثانية : 1971م ، جـ4 ، الطبعة الأولى : 1937م ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي– بمصر.

(10) الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت 255هـ ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، منشورات المجمع العلمي العربي الإسلامي ، بيروت ، ط3 ، 1969م.

(11) رسائل الجاحظ : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي ، بالقاهرة ، 1964 – 1979م.

(12) زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، الطبعة الثانية ، دار إحياء الكتب العربية ، 1970م.

(13) صبح الأعشى : لأبي العباس أحمد القلقشندي ت 821هـ ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، 1913م – 1916م.

(14) الصناعتين : لأبي هلال العسكري ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ط1 ، دار إحياء الكتب العربية ، 1952م.

(15) عيون الأخبار لابن قتيبة ت 276هـ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1925 – 1930م.

(16) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية : لمحمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي ، راجعه محمد عوض إبراهيم وعلي الجارم ، ط2 ، مطبعة المعارف بمصر ، 1938م.
(17) الفهرست : لمحمد بن إسحق النديم ت 385هـ ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ، 1978م.
(18) مروج الذهب ومعادن الجوهر : لأبي الحسين علي بن الحسين بن علي المسعودي ت 346هـ ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط4 ، المكتبة التجارية الكبرى ، 1965م.
(19) مقدمة ابن خلدون : لعبدالرحمن بن محمد بن خلدون ت 808هـ ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ب.ت.
(20) الوزراء والكتاب لأبي عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري ت 331هـ تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، الطبعة الأولى ، مصطفى البابي الحلبي ، 1938م.

ثانيًا : المراجع القديمة والحديثة :

(21) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، د. محمد مصطفى هدارة ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، دمشق ، 1981م.
(22) الأحكام السلطانية والولايات الدينية : لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ، بيروت ، 1978م.
(23) الأخبار الطوال : لأبي حنيفة أحمد بن داود الدنيوري ت 282هـ ، تحقيق: عبدالمنعم عامر ، مكتبة المثنى ببغداد ، 1959م.
(24) أدب السياسة في العصر الأموي د. أحمد الحوفي ، الطبعة الخامسة دار نهضة مصر للطبع والنشر.
(25) أمراء البيان : لمحمد كرد علي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1937م.
(26) كتاب بغداد : لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر المعروف بابن طيفور ت 280هـ ، نشر السيد عزت العطار الحسيني ، 1949م.
(27) بلاغة الكتاب في العصر العباسي : دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب ، د. محمد نبيه حجاب ، المطبعة الفنية الحديثة ، ط أولى ، 1965م.
(28) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : لمحمود شكري الألوسي ، نشر محمد بهجت الأثري ، ط2 ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، 1925م.
(29) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري : د. محمد نجيب البهبيتي ، نشر دار الثقافة ، الدار البيضاء بالمغرب ، 1982.
(30) تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي : د. أنيس المقدسي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1960.
(31) التنبيه والإشراف : لأبي الحسين علي بن الحسين بن علي المسعودي دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1981م.

(32) التيارات الأجنبية في الشعر العربي منذ العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، د. عثمان موافي ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، 1973م.
(33) تيارات ثقافية بين العرب والفرس : د. أحمد الحوفي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر بالفجالة ، القاهرة ، 1968.
(34) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر، الجزء الأول ، 1982م.
(35) صور البديع «فن الأسجاع» : علي الجندي ، دار الفكر العربي ، 1951م.
(36) ضحى الإسلام : لأحمد أمين الجزء الأول ، ط9 ، مكتبة النهضة المصرية ، 1977م.
(37) طبقات الأمم : للقاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي ت 462هـ ، مطبعة السعادة بمصر ، ب.ت.
(38) العصر الإسلامي : د. شوقي ضيف ، الطبعة السابعة ، دار المعارف بمصر، 1976م.
(39) العصر العباسي الأول : د. شوقي ضيف ، الطبعة السادسة ، دار المعارف بمصر ، 1976م.
(40) العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر ، 1977م.
(41) فتوح البلدان : لأبي الحسن أحمد بن يحيى البلاذري ت 279هـ ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1978م.
(42) فجر الإسلام : لأحمد أمين ، ط 12 ، مكتبة النهضة المصرية ، 1978م .
(43) الفن ومذاهبه في النثر العربي : د. شوقي ضيف ، الطبعة السابعة ، دار المعارف بمصر ، 1974م.
(44) في الأدب الجاهلي : د. طه حسين ، الطبعة الحادية عشرة ، دار المعارف بمصر ، 1975م.
(45) مختارات ابن الشجري : نشر محمود حسن الزناتي ، ط 1 ، مطبعة الاعتماد، مصر ، 1926م.
(46) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية : د. ناصر الدين الأسد ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف بمصر ، 1978م.
(47) من حديث الشعر والنثر ، د. طه حسين ، ضمن المجلد الخامس ، من المجموعة الكاملة لمؤلفات د. طه حسين ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، الطبعة الأولى ، 1973م.
(48) نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ، د. حسين نصار ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، 1954م.
(49) النثر الفني في القرن الرابع : د. زكي مبارك ، دار الجيل ، بيروت ، 1975م.
(50) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه : د. عبدالحكيم بلبع ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1955م.
(51) الوساطة الوساطة بين المتنبي وخصومه : للقاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، 1966م.